ق

قصص

.. وقصص أخرى

آدم من طين

دار سعاد الصباح

محمد المنسى قنديل



دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
ص . ب . ١٣ المقطم - القاهرة
فاكس : ٥٠٦١٠٣٠
٣٥ ش محى الدين أبو العز
ت ٣٤٩٧٧٧٩ - ٣٤٩١٧٢٧

رقم الايداع ٩٧١٢ / ٩٢
I.S.B.N. 977 - 5344 - 42 - 5

الطبعة الأولى
١٩٩٣

الاشراف الفنى : حلمى التونى

ق

قصص

.. وقصص أخرى

آدم من طـــين

محمد المنسى قنديل

دار سعاد الصباح

محتويات الكتاب

١ -راوند ٥

٢ - نوبة وداع لبائع الحليب ٢١

٣ - قتيل ما فى مكان ما ٣١

٤ - وقت للجفاف ووقت للمطر ٥١

٥ - آدم من طين ٨٥

راونـــــــد

وصل الطلبة مبكرين فامتلأ صمت الصباح بحياة مفاجئة . تبددت أنفاس النعاس وذاب الضباب الذي كان نائما علي قطع القطن الملوثة فى حديقة المستشفى . نهض المرضى بغتة وقد فوجئوا أن الصباح قد جاء وهم مازالوا على قيد الحياة . المستشفى كله تسوده حالة الترقب التى تسبق الامتحانات . إزدادت رائحة « السافلون » التى يغسلون به الأرضيات حتى بدت نظيفة ومليئة بالتجاعيد .

عبر الطلبة – الصبيان والبنات – طرقة القسم فى سرعة . كانت معاطفهم بيضاء قصيرة وأوراقهم كثيرة ووجوههم مشربة وعيونهم لامعة . إتجهوا الى حالة «٢٠» الراقدة على آخر الأسرة . كانت هى آخر حالة سوف تتم مراجعتها قبل الامتحانات . ساروا عبر الأجساد الهزيلة . تتابعهم عيون المرضى . حيوانات تجارب انهكتها الاختبارات غير المجدية ومضاعفات المرض التى لاترحم .. قلوب تنبض فى وهن دون أن تقدر على دفع ماتراكم فيها من دماء .. أكباد شققتها الألياف كأنها أرض عطشى. صدور محتقنة تحاصرها وترقد عليها أغلفة من المياه فتعوق تردد أنفاس الحياة فيها . والطلبه يواصلون عبور إشارات الموت الذى تبددت رهبته وبقيت شواهده .

وجمعة الحالة «٢٠» - يرقب قدومهم نحوه . حين اقتربوا أسرع بإغلاق عينيه . أثر الحياة الوحيد الذى كان ظاهراً فى وجهه . تشبث بالغطاء وظل ساكنا ، كان يدرك أنه بعد لحظات سوف يغدو جسده كله فريسة لأصابعهم وعليه أن يجز على أسنانه ويتحمل كل اللمسات الخاطئة التى تسبب له المزيد من الألم .

وقفت «ثريا» رئيسة الممرضات على باب القسم . رفعت يدها كى تمنع دخول عربة «الترولى» التى كانت تحمل وجبات الأفطار . قالت فى حدة :

- اليوم موعد مرور الدكتور « عرفة» وسوف يثور إذا وجد بقايا الطعام بجوار أى سرير . لن يصرف الطعام إلا بعد انتهاء المرور والمراجعة وكل شئ ..

قالت مسئولة التغذية :

- ولكنهم سوف يموتون من الجوع ..

قالت ثريا : إنهم موتى على أى حال .

شهق نائب القسم الدكتور « عبد الغفار » من الدهشة وهو يتطلع من النافذة . فوجئ أن السيارة المرسيدس البيضاء الفاخرة واقفة فى مكانها . كيف وصل الدكتور عرفه الى المستشفى دون أن يراه . ولماذا جاء مبكراً هكذا ؟ ، أسرع خارجا من الباب . عابراً الطرقة متقافزاً فوق السلم لعله يكون أول من يستقبله ويلقى عليه تحية الصباح ويحمل عنه الحقيبة . ولكنه لم يجده لا على السلم .. ولا فى البهو الخارجى . ولا حتى عند الباب. وكان بقية أعضاء القسم الأعلى منه مقاماً وسنا واقفين هم أيضا فى الانتظار .. وكان واضحا أن الدكتور عرفة لم يظهر بعد .

واصل جمعة تظاهره بالنوم . لم يأبه بكلماتهم ولابضحكاتهم وهم يحاولون إيقاظه . كان متشبثا وملتفا بالغطاء . نظر مصطفى الى هادية التى تقف بجانبه وهى تحتضن أوراقها . إبتسمت له مشجعة فقرأ اسم الرجل على « الشيت» المعلق بالسرير . ثم اقترب من المريض أكثر وهزه برفق :

– عم جمعة .. هذا ميعاد « الراوند» .. المرور ..

ولكن جمعة كان مصراً على الايحس بالهزة أيضا . إنزلق أكثر تحت الغطاء حتى أوشك أن يختفى . نظر مصطفى الى هادية ثم عاد يهز جمعة بقوة أكثر وصوت أعلى . وأخيراً فتح جمعة عينيه المتعبتين وهو يقول متوسلا :

– إتركونى فى حالى . لم أنم طوال الليل وكانت روحى على وشك الخروج ..

قال مصطفى فى صوت حاول أن يجعله مرحاً :

– الحمد لله أنك لم تمت . كنت ستسبب لنا مشكلة كبيرة فى المراجعة. وزم جمعه شفتيه غاضبا . ضحك البعض ولكن هادية رمقت مصطفى فى عتاب ، فنظر الى جمعة متلطفا وحاول أن يزيح الغطاء من عليه :

– هيا ياعم جمعة . سيأتى الاستاذ حالا ويجب أن نُحَضر حالتك أولا . أسئلة بسيطة وفحوص قليلة .

ورد جمعة الغطاء حتى رقبته ثم أفصح أخيراً عن نواياه :

– لن اكشف عن قطعة من لحمى قبل أن يدفع كل واحد منكم جنيها

كاملا .

.. وقف الدكتور عبد الغفار متردداً أمام باب الغرفة المكتوب عليها «رئيس القسم» كان هناك ضوء ينعبث من تحت عقب الباب . فهل الدكتور عرفة فى الداخل ؟ .. كيف جاء ودخل دون أن يشعر به أحد؟. كيف أفلت من انظار الاساتذة المساعدين والمدرسين والمعيدين والنواب الصغار . كيف ظل الصمت سائداً حتي الآن دون أن يرتفع صوته الهادر منتقداً كل شئ ؟

طرق النائب الباب فلم يجب أحد . من المستحيل طبعا أن يكون الدكتور عرفه قد نسى الضوء مشتعلا منذ الأمس . إنه لا يرتكب مثل هذه الأخطاء . عاود الطرق ثم وضع يده على مقبض الباب . كان مفتوحاً . خطا الى الداخل . شاهد الدكتور عرفة واقفا فى أقصى الغرفة بطوله الفارع . يتأمل اللوحة المضيئة الموضوع فوقها عدة صور للأشعة . مقاطع للصدر من كل الزوايا . والدكتور الكبير يتأملها مستغرقاً حتى إنه لم يسمع صوت الباب ولم يشعر بدخول النائب .. صامتا .. جامداً .. كأنه يحاول أن يستنطق الصور بظلالها السوداء . معتمة مثل طيور جائمة على ضوء خافت . والدكتور يحدق فيها كأنها قد إمتلكت مصير روحه بين مخالبها.

توقف عبد الغفار مذهولا . خائفاً من التراجع . من أن يقوم بأى حركة تخدش ذلك الصمت الرهيب الذى يخيم على كل شئ . ثم التفت اليه الأستاذ ببطء . إرتجف النائب وهو يتوقع ثورته العارمة . ولكن الاستاذ بدا كمن اكتشف عاريا . ظل يحدق فيه فاغر الفم ، ثم جلس مهدوداً فوق أحد المقاعد . تحرك النائب مستعداً للتراجع وتمتم معتذراً :

- أسف ياسيدى . حسبت الغرفة خالية .

قال الاستاذ بصوت خافت ولكنه باتر :

- أنت أعمى ولاشك .

ثم تذكر أن صور الأشعة مازالت معلقة فوق اللوحة المضيئة . نهض وانتزعها من مكانها بسرعة . إنتهز النائب الفرصة وواصل تراجعه . ولكن صوت الاستاذ أوقفه :

- لم أطلب منك الانصراف . لقد رأيتنى فى لحظة غير مناسبة وسوف تتمنى أنك لم ترنى .. ماأسمك ؟ ..

كان عبد الغفار واثقا من أنه يعرف إسمه جيداً ، ولكن خيل اليه أنه ينطقه للمرة الأولى ، وربما الأخيرة ، أشار اليه الأستاذ فى إهمال :

- إذهب .. حاول الاتدعنى أرى وجهك أثناء المرور .

تراجع عبد الغفار بسرعة وأغلق الباب خلفة واستند اليه من الخارج محاولا أن يلتقط انفاسه . جرى مسرعاً الى باب القسم . لم يبال بالنظرة المندهشة التى بدت على وجه « ثريا » .خلع المعطف وألقاه على الأرض . هتفت ثريا :

- « الراوند » : لم يبدأ بعد . ماذا حدث ؟ ...

لم يرد عليها . أسرع عبر باب القسم والطرقة وهبط على الدرج حتى باب المستشفى الخارجى . لم تعد هناك جدوى من المساومة مع جمعة . هددوه بأن يشكوه للنائب ولرئيسة المرضات ولكنه كان يفهم أصول اللعبة جيداً فازداد إصراره . جذب الغطاء وأدار وجهه للناحية الأخرى كأنه لايحس بوجودهم . فتحت « هادية » حقيبة يدها ولكن مصطفى كان

معترضا ومتهما جمعة بالاستغلال . كانت النقود التى ظهرت داخل حقيبة هادية تؤكد أنها قادرة على أن تدفع للجميع وليس لنفسها فقط . تقدم طالب آخر كان قد ترك قيادة المجموعة لمصطفى طويلا . قال لجمعة ينهى المناقشة :

– كل واحد سوف يدفع لك نصف جنيه . فاهم . ولامليم زيادة .

ولابد أنه كان حازماً لأن جمعة أوما براسه منصاعاً . بداوا يخرجون النقود ويضعونها على صدره . تلفت جمعه ليرى إن كانت الست ثريا تراه أم لا . وظل مصطفى واضعاً يده فى جيبه . يتحسس القطع المعدنية . لم يكن متأكداً إن كانت تفى بالمبلغ أم لا . أخرجت هادية جنيها كاملا وضعته دون أن تأبه بأخذ الباقى . نظرت الى مصطفى كأنها تنهى الموقف.

أحس الجميع أنها قد دفعت بدلا منه وانتهى الأمر . ولكن مصطفى اندفع فى حنق أخرج كل مافى جيبه من قطع معدنية ونثرها على صدر جمعة فرنت فى صوت واهن ثم ابتعد عن هادية ووقف فى آخر المجموعة. لملم جمعة النقود ودسها تحت الوسادة فى سرعة . ثم إبتسم حتى ظهرت أسنانه الصفراء المفلوجة وقال فى صوت قوى مرح :

– تحت أمركم يادكاترة ..

بداوا يسألونه ويكتبون بسرعة . ! إستغرقت المساومة وقتا طويلا يجب تعويضه . ولكن جمعة كان أيضا أفضل مما توقعوا . كان مريضا محترفاً يستحق الثمن الذى دفع فيه،عارفا بدقائق الحالة التي يعانيها . تطورات المرض وأعراضه ومضاعفاته بل مختلف طرق العلاج أيضا .

كان يحفظ كل المصطلحات اللاتينية . يقولها بطريقة معوجة ولكن مفهومة . إنهمكت هادية فى الكتابة . لم ترفع راسها لترى إلى اين ذهب

مصطفى . كان منزويا يوشك على أن ينفصل عن بقية المجموعة . لم يكن يريد أن يسمعوا وقع تردد أنفاسه المحتقنة .

كانت ثريا موقنة من أن الدكتور عرفة داخل غرفته . كانت تشم رائحته ورائحة الأطباء . ورائحة «السافلون» . ولكنها كانت تدرك انها تخفى خلفها رائحة وحيدة هى رائحة المرضى . مهما تحممت ووضعت من عطور تظل عالقة بها . ملتصقة بجسدها .

منذ زمن بعيد فقد جسدها رائحته الخاصة . النضارة التى كانت تفوح من كل خلية من خلاياها . عندما تخرجت فى مدرسة التمريض . كانت مثل ملكة النحل لا يكف أطباء الامتيار عن مطاردتها . حتى الدكتور عرفة نفسه زنقها ذات يوم فى «كشك» الباطنة ومد يده محاولا أن يفك أزرار معطفها الأبيض .. ثم علقت بها الرائحة . وتراكمت داخلها . تخرج الجميع وترقوا وارتفعوا . سافروا إلى بلاد الخليج وعادوا . وظلت هى داخل أسوار هذا القسم . تراقب المرضى وهم يبدأون بالهذيان من الحمى. ثم يتقيأون من سوء التغذية ثم ينتفضون إلى درجة الموت .

نهض المرضى من فوق الأسرة يطالبون بالطعام المتأخر . تحرك المدرسون والمعيدون فى قلق وبحثوا عن نائب القسم كى يجهز حالة المراجعة فلم يجدوه . أصيب جمعة بالإنهاك فكف عن الكلام وتركهم يعبثون فى جسده كما يحلولهم . زعقت ثريا في المرضي أمرة إياهم أن يعودوا الي أسرتهم وإلا كتبت لهم «خروج» وجمع الطلبة أوراقهم واستطاع جمعة أخيراً أن يغطى بطنه المنتفخ .

فتح باب الغرفة وخرج الدكتور عرفة . جامد الملامح . شاحب الوجه . كأنه خارج من جوف قبر . حدق فيهم دون أن يراهم . توقف عند باب القسم حتى إنتظم الجميع خلفه بالترتيب الوظيفى . الاساتذة المساعدون

فالمدرسون ثم المدرسون المساعدون ثم المعيدون .

إعتدلت ثريا ونصبت قامتها وبرز نهداها للأمام حتى أوشكا أن يعترضا طريق الدكتور عرفة الذى مر بها دون أن يراها .

تقدموا فى صمت مهيب إلى داخل القسم . الأسرة متجاورة والمرضى متراصون فوقها . توابيت تنبض بقدر ضئيل من الحياة . توقفوا عند السرير الأول وبحثوا فى غيظ عن النائب . تكوم الطلبة ثم تسللوا فى صمت إلى المدرج الصغير الملحق بالقسم كى يأخذوا أماكنهم حتى ينتهى الأستاذ من «الراوند» . جلس مصطفى فى «البنش» الأخير وأنزل عينيه حتى لا يرى هادية التى جاءت ووقفت أمامه وعلى وجهها إبتسامة صغيرة وهى تقول :

– هل هناك مكان بجانبك ..؟

أفسح لها مكانا بجواره وقد إزداد إرتباكه ، وكان ثوبها قصيراً بعض الشئ . وأتاح له هذا أن يرى ركبتيها الناصعتين وهى تجلس أقرب ماتكون إليه . رغم ذلك أحس أنهما متباعدان .. كانا يجلسان مع بعضهما البعض الساعات الطويلة وهو لاينى يعد لها الكشاكيل والمذكرات ويكفيه فى مقابل ذلك أن تتطلع إليه مبتسمة وأن تقول له «مرسيه» صغيرة وباترة . كان مصراً على أن يكون دائما أول الدفعة . ولم يكن أمامه خيار آخر ولا وقت ليقول لها كلمة خارج المقرر .

هز الدكتور عرفه رأسه وهو يستمع إلى متابعة علاج الحالة . كانت النتيجة معروفة سلفا . كلها حالات جاءت بعد فوات الأوان . المضاعفات أوصلتها لدرجة اليأس . ولم يستبقها داخل المستشفى إلا لضرورات الإمتحان .

كان الاستاذ غريبا هذا الصباح . لا يناقش . ولا يعترض . ولا يسفه

أراءهم كما تعود أن يفعل . يسير بشكل آلى من سرير إلى آخر . يتأمل اقنعة المرضى فوق الأجساد المسجاة بنظرات ساهمة . وكان الدور يقترب من جمعة الذى رقد متململا فوق سريره . لم يكن عليه أن يبقى هنا . يجب أن تحضر النقاله كى تأخذه إلى المدرج الصغير حتى يستكمل الشرح هناك . ولكن مع غياب النائب لم يفطن أحد إلى ذلك .

جمعة كان يعرف دوره جيداً . قبل أن يصلوا إليه نهض واقفا . ترنح تحت ثقل بطنه الممتلئ . فوجئ الاستاذ بالمريض وهو ينتصب أمامه كأنه قد بعث من الموت . إرتجف الاستاذ عندما وجده يقترب منه . يريد أن يسلبه شيئاً . رأى روحه الضعيفة الواهنة وهى ترف فيما بينهما . كانت حركة المريض الواهنة وجسده المتقوس ووجهه الشاحب يقترب منه كأنه يسد أمامه كل منافذ النجاة . تراجع ثم استند على حافة السرير ثم تمالك نفسه كما يليق بأستاذ ونطق للمرة الأولى منذ الصباح :

– كيف استيقظت هكذا .. كيف جرؤت على النهوض ؟

قال جمعة متوسلا : أنا حالة المراجعة اليوم يابيه .. ربنا يخليك ليس لى ذنب .

أدرك الاستاذ أنه مجرد مريض منهم ، وليس أكثر من هذا . أشار له فى حزم أن يمضى مبتعداً . أوشك جمعه أن يتعثر وهو فى طريقه للمدرج الصغير . حدقت ثريا فى وجه الدكتور عرفة .. ماهذه الرائحة التى تنبعث منه ؟

دخل جمعة إلى المدرج الصغير ضعيفا منكسراً . يسير على أقدامه كأنه يبحث عن مأوى . فقد السرير الذى كان مصدر قوته . أصبح الآن أمامهم فى حجمه الطبيعى . ليس لديه مايتفاوض عليه . إكتشفوا مدى هزاله وقصر قامته وضخامة بطنه . إرتقى المنضدة المعدنية الموضوعة

أمامهم . وتمدد عليها . ثم جذب الملاءة الصفراء المليئة بالثقوب من أثر السجائر واستلقى محدقاً فى السقف حتى لا يحس ببقية العيون المسلطة عليه .

خطا الاستاذ داخل المدرج فساد الصمت المطبق . إتجه إلى مكانه خلف المنضدة التى كان جمعة يستلقى عليها ثم دخل بقية «الاستاف» . تناثروا فى المدرج حسب اهميتهم ، الاساتذة المساعدون أكثر قربا . يليهم المدرسون . أما المعيدون فقد جلسوا فى البنش الأخير بجوار هادية ومصطفى . وعندما اكتمل الشكل أشارت ثريا للتمرجية أن تدخل بفنجان القهوة وكوب الماء البارد إلى الاستاذ .

نظر الاستاذ إلى المريض المستلقى أمامه فى اهمال يشوبه الاحتقار . كان يحاول أن يتحرر من هذه اللحظة الغامضة التي انتابته . وظل جمعة متحجر العينين لا يرى إلا الطلاء المتساقط . كان من المتوقع أن يبدأ الأستاذ بدايته الساخرة . يسخر من الطلبة والمرضى والاساتذة والتعليم المتهالك . ولكنه ظل مقطب الوجه . حدق فى الطلبه كأنه اكتشف وجودهم للمرة الأولى . حاول أن يتكلم ،، أن يطرد الطيور السوداء الجاثمة على صدره .

هتف فى صوت مختنق :

– من الذى أعد هذه الحالة ؟..

لهجة متجهمة وباردة أخافت الجميع فلم يرفع أحد يده . حدق فيهم بنظراته الصارمة فازداد خوفهم . أدركوا أن من يوقعه الحظ بين يديه فلن يرحمه فى المناقشة وسوف يجعله سخرية الجميع . أخرج «البايب» من جيب معطفه وأشعله ببطء ونفث عدة دفعات من الدخان قبل أن يهتف غاضبا :

– ماهذا . ألم يتكرم أحد منكم ويتفضل بأخذ تاريخ هذه الحالة ؟

أحسـوا بذنب مـفاجئ وتلفت بقـية «الأسـتاف» تلفـتوا للخلف يـبحـثون عـمـن ينقـذهـم . توقـفت عـينا الأسـتـاذ عند مـصطفى . كـان جـالسـاً فى «البنش» الأخير رافـعا يده إلى أعلى . نظر إليه مدهوشاً وسـاخراً . كأنه لم يكن يريد لأحد أن يمتلك الجرأة على رفع يده . هل كان هذا الطالب يحاول أن يتـحدى سلطتـه وهيبتـه التى فـرضـهـا على الجـميع ؟ نفث غليـونه وهـو يهتف :

– انت الشجـاع الوحيد الموجود هنا . الفأر الذى سيعلق الجرس . إخفض يدك ياسيدى سوف أختار أنا بنفسى .

أنزل مصـطفى ذراعه ورمق هادية بنظرة يائسـة . ولابد أن هـذه النظرة هى التى لـفـتت أنظار الأسـتـاذ إليـهـا . تأمل وجـهـهـا الصـغـيـر المسـتـدير وملامحهـا الدقيقة . كان فـيها جمال من نوع خاص . شعـرها مرفوع إلى أعلى ومـتـجمع خلف رأسـهـا كـأنها تريـد أن تبرز كل مـلامح الوجـه .. هذا الوجه الجميل تتعامل معه صـاحبته بذكاء . ترفع بصـرها وترمق الجميع بنظرات سـاهـمة فيـها نوع من التعـالى والكبرياء . رفع الدكـتور عـرفه يده وشـرع أصبعه ووجهه نـحوها وقال بلهجة باردة حيادية :

– دعينا نر ماعندك أيتها السيدة الصغيرة ؟

فوجئت هـادية . نهضت ثم جلسـت ثم عاودت النهوض مرة أخرى . لم تكن مـهـيأة لأن يحـدث لها هـذا فى أحد أيـام الدكتـور عـرفـة وفى آخـر أيام المراجـعة . نظرت إلى مـصطفى . كـان جـالسـاً مـشلولا . شـاعـراً بالذنب . كـأنـه هـو الذى قـادهـا إلى هذا الفـخ . أنزل الاسـتـاذ يده وظل واقـفـا فى الانتظار. لم تدر كـيف تعـترض أو تتنصل . الانظار كلها مركـزة عليـهـا . نهض المعـيدون بالـفعل كى يفـسـحـوا لهـا طريقا لـلخروج . وهكذا لم تجـد بداً من أن تحـمل أوراقـهـا المكتوبة بالقلم الرصاص وتضـمـهـا إلى صـدرهـا كأنها تصنع درعاً من ورق.

إندفعت هادية فوق المدرج . شعرت أن دقات حذائها تدوى فى فضاءات شاسعة . تابعتها العيون حتى وقفت أمامها . الاستاذ والمريض . كان عليها أن تواصل سيرها حتى تقف على الجانب الأيسر من المريض بجانب الدكتور عرفة .

توقفت ثريا بالقرب من باب المدرج الصغير .. كم أصبح الدكتور عرفة عجوزاً ، وكم ظهر هذا العجز عندما وقفت هذه البنت بجانبه .. لم تكن متفجرة بالأنوثة مثلما كانت ثريا فى عز نضارتها . ولكنها متفجرة بالشباب الغض . جمال لا يمنحه سوى فتوة القلب .

تحسست ثريا تجاعيد وجهها .. كيف توالت الأيام وتبددت سريعا هكذا .. كيف توالوا عليها وامتصوا رحيق عمرها ؟ أحست بشئ يلمس ذراعها . سرت فيها قشعريرة . إلتفتت . كان الشئ الذى يلمسها أصابع أشبه بالمخالب الصغيرة . مريض صغير شاحب يحمل كل أمراض الكبار يقف أمامها . تسلل من قسم الأطفال وجاء إليها وهتف متوسلا :

– ربنا يخليكى ياست الحكيمة .. إصرفى لنا الفطار ..

عيون المرضى كلها معلقة عليهما . كان هو رسولهم إليها . يحمل نفس الرائحة التى تربطهم جميعا بها .. هل كان يمكن أن يكون لها طفل تعيش مثل هذا الطفل ؟ إنحنت وحملته بين ذراعيها :

– ياعنيا ياخويا .. يقطعنى .

إبتعد الدكتور عرفه قليلا شأن أى رجل مهذب كى يترك لهادية المجال لمواجهة المريض ولكنها كانت تحس أنها دخلت مجاله . أحاطتها هالات دخان التبغ المنبعثة من غليونه. نظرت إلى أوراقها المكتوبة بالقلم الرصاص وبدأت تقرأ تاريخ الحالة من الماضى إلى الحاضر .. تستعرض رحلة الوهن والألم من بدايتها .

«جمعة على أبو حسين ٥٥ عاما . فلاح . متزوج وله أربعة أولاد .. الأعراض السابقة » كان جمعة قد كف عن التحديق فى السقف وركز

أبصاره عليها . لم ينس أنها الوحيدة التى أعطته جنيها كاملا . كان يفهم بعض المصطلحات التى تقولها ولكنه لم يكن متأكدا من أن جسده يستوعبها جميعا . أحيانا عندما يدسون أصابعهم تحت حافة قفصه الصدرى ليتحسسوا مقدار حجم الكبد . أو يدقون على أضلاعه ويثنون جلد بطنه ويضغطون على ساقه المنتفخة . أحيانا كان يخيّل إليه أن هذا ليس جسده وإنما يخص جثة أخرى غريبة عنه ، زمجر الاستاذ :

– بهذه الطريقة لن تسمعى شيئا . هذا فحص وليس مجرد طرقعة أصابع .

بدأ يحاصرها بأسئلة سريعة . حاول أن يربكها وينتصر عليها وينتقص قليلا من هذا الكبرياء ولكنها ظلت تقاوم حتى جلس على المقعد وتركها تواصل بقية إجراءات الفحص ، وجد نفسه غارقاً فى تأملها . فى سماع نبرات صوتها . كف عن التدخين وبدأت رائحتها هى تفرض وجودها وتحيط به . ماأشد ماتقف منتصبه دون انحناء ، صدرها منتصب. ومؤخرتها الصغيرة منتصبة وحتى السمانتان فى خلفى ساقيها منتصبتان . عصارة الحياة التى تفور داخلها تمنحها شيئا من سموق الأشجار . تمارس سيطرتها على الجسد المسجى أمامها . صوتها قوى وحركاتها بسيطه .. وآسرة بلا تصنع .. فهل تستطيع أن تمنحه شيئا من فوارن حياتها ؟..

قفز المرضي فى خطوات فرحة وهم يتناولون صوانى وجبة الافطار . قشروا البيض نصف الفاسد فى جذل . عزموا على بعضهم البعض بقطع الجبنة «النستو» دعكوا الأرغفة ليزيلوا ذرات «الردة» من عليها . نهض واحدمنهم وذهب إلى فراش «جمعة» وفتش تحت الوسادة والمرتبة فلم يجد شيئا . عاد إلى سريره خائبا فلم يجد كيس اللبن الخاص به . وظلت ثريا واقفة تشاهد فوضى الطعام السعيدة وقد احست فجأة أنها إستطاعت أخيراً أن تنتقم من الدكتور عرفه .

توقفت هادية . توقف الكلام فى حلقها . لم تدر أهى حقيقة أم أنها

تتخيل . كانت هناك يد قد وضعت على جسدها من الخلف . لمسة قصيرة ولكنها مؤكدة . نظرت إلى المريض الراقد مستكينا . يداه ممدوتان بجانبه . نظرت إليهم جميعا . كانوا يراقبون حيرتها ولحظات إرتباكها . حاولت أن تعاود الكلام ولكنها أحست باليد مرة أخرى . التفتت فى فزع . قابلت عيناها وجه الاستاذ . بارداً ومجعداً ومصمما . تكسرت الحروف على شفتيها وخرجت منها أصوات غيرمفهومة . نظرت إلى حيث يجلس مصطفى . كم يبدو بعيداً . حاولت أن تتحرك مبتعدة ولكن الأصابع غاصت فى لحمها أكثر . كانت المنضدة النائم عليها المريض تحجب مايحدث عن أنظار الجميع .. جاءها صوت الاستاذ باردا :

- اكملى ..

هل تصرخ بصوت عال . نظرت للمريض . إليهم . اليد صعدت إلى أعلى قليلا فأوشكت أن تتقيأ . كان الاستاذ مغمض العينين . يبدو غائبا عن الوجود . متشبثا بأخر رباط للحياة . لعل قليلا من الدفء ينسرب إلى داخله ، كانت يداه قد انفصلتا عنه . أخذت تسعى مثل نبات أعمى نحو مصدر الضوء . هل هناك بقية من أمل . كان جسد هادية يتراخى . تنسحب الروح من حلقها . ثم أفاقت على صوت شهقة .

جمعة يشهق كأنه يحتضر، عيناه مفتوحتان . فيهما فزع لا حد له . أحست أنها تستعيد روحها المسلوبة . نزعت نفسها من الأصابع التى تحاول أن تقبض عليها . خرجت تعدو من وراء المنضدة . كانت تكتم دموعها بصعوبة ، هرعت خارجة من المدرج . لم يجرؤ أحد على التحرك، نهض الاستاذ واقفا . نظر إليهم كأنه يفيق من نوم عميق .. ثم نظر إلى المريض المسجى أمامه . تذكر الطيور السوداء . ووجه النائب المفزوع . لم تعد الفتاة موجودة وتبدد كل شئ ، تأمل وجه جمعه . والنظرة التى فى عينيه ، مال نحوه وقال له فى صوت خافت لم يسمعهما سواهما :

- لا جدوى من بقائك فى المستشفى . حالتك ميئوس منها وسوف اكتب لك خروجا اليوم .

نوبة وداع لبائع الحليب

كان هناك صمت . مرهف كحد السكين . رمادى وبارد . الآن فقط استطيع أن أرى الفراغ الشاسع الذى يحيط بى . قطع الأثاث وقد أصبحت فجأة قديمة ومستهكة . رائحة من العطن الخفى تتسلل من كل مكان فى الشقة . الصمت جعل كل شئ أكثر غربة وتباعدا . لم يبق إلا أن يدخل فى عروقى مثل الابر المتتابعة فيهب لى بعضا من السكينة الزائفة .

ولكن كل شئ ذهب سدى .

حدث أننى سمعت صوت خطواته وهى تزحف الدرج . كان يصعد إلىّ أنفاسه تزداد تحشرجا كلما صعد دورا . ولكنه يواصل الصعود . وما إن يصل إلى الباب الخارجى حتى تتوقف أنفاسه تماما . ويظل هكذا عدة دقائق ثم يمد يده ويدق الجرس . هذه هى اللحظة التى أنهض فيها وأذهب إلى المطبخ وأحضر إناء اللبن . وهذا هو ما فعلته بالضبط . كا اننى سمعت دقات الجرس فى منتصف المسافة وأنا عائد اليه . فتحت الباب كان واقفا مستندا الى الجدار . محتقن الوجه . يحمل «سطل اللبن» فى يد وفى الأخرى «الكوز» الذى يقيس به كمية اللبن . صاح فى وجهى بصوت ممطوط:

- حا .. لى .. ى .. ى .. ب

مددت يدى إليه بالاناء . قفزت قطة صغيرة بسرعة ووقفت تحت أقدامنا . نفس القطة التى تقفز كل مرة متربصة مترقبة لعل قطرة من اللبن تسقط اليها فتلتقطها . وفى العادة لم يكن هناك أى قطرة تسقط منه. ولكن القطة لم تكف قط عن الترقب ، فقد كنت انا الذى أهز يدى هزة خفيفة من أجلها .

فجاة قال بائع الحليب بعد أن صب « الكوز » الأول :

– كم كيلو تريد يابيه ؟

فى العادة لم يكن يسألنى . ولكن السؤال اهوى على كاللطمة . التقطت انفاسى . وحاولت أن أهدئ من ذات نفسى . وقلت :

– لا أريد ، أعد اللبن الى الاناء .

لم يفهم . حدق فىّ متسائلا :

– ماذا يا بيه .. ماذا تقول ؟

تبدد الصمت الهش . وزالت السكينة . الزائفة .وأصبحت رائحة العفن من داخل الشقة اكثر وضوحا . هتفت والأناء يرتج فى يدى . واللبن يوشك على الانسكاب :

– قلت لك أعده .. لا أريده ..

حدق فى « الكوز » الذى فى يده . والاناء الذى يهتز فى يدى وقال :

– لماذا يابيه . لا يوجد فى اللبن أى كدر ؟ «

لا يوجد فى اللبن مايكدره . ولكن تكفى نقطة صغيرة بالغة السواد شديدة الضألة حتى تفسد كل شئ « خال صغير على وجنة صورة

باهتة.بقعة من الحبر وسط سطور رسالة حب قديمة .. قلت :

- كم حسابك .. كم بقى لك عندى ؟

حدق فى متمعنا . شاهد جسدى الذى ينتفض . أعاد اللبن الى السطل. القيت الأناء جانبا حتى لا يكشف رعشة يدى وأنا أحمله . كان يعتقد أننى احرش به . وكنت أحس بالخوف منه ، الشقه مازالت غارقة فى الصمت . والأغطية مكومة على الأسرة دون ترتيب . كلها باردة . تحمل أثار عرق قديم وعطر عابر وأحلام تالفة . والملابس نصفها متسخ ونصفها مبتل . وفى الاوعية بقايا طبيخ وقطع من اللحم المتحلل . خبز جاف . طماطم طرية عليها بقع من الفطر الأبيض . انصاف ليمونات جافة والقطة الصغيرة رفعت رأسها تراقب الكلمات التى تسقط من أفواهنا دون أن تسقط قطرة واحدة من اللبن ، قال الرجل :

- أنت أدرى بحسابك .. عندك ، الدفتر ، وأنت تحسب الراتب اليومى .

تذكرت الدفتر الصغير . كل ورقة مرسومة عليها بقرة سمينة بخطوط ركيكة . مكتوبا بجانبها اسم البائع والوزن المحدد . كلما أحضر لى لبنا أعطيته ورقة منه حتى إذا نفد الدفتر الصغير أخذ منى ثمنه وأعطانى واحدا جديدا.

كان الاحتفاظ بهذا الدفتر الصغير مشكلة حقيقية . دائما كن يعبثن به ويغيرن من موضعه .كنت أصرخ فيهن دون جدوى . لم يكن يخشيننى على الإطلاق . ايديهن الصغيرة تمتد لتعبث فى كل شئ . ثم اهتديت أخيرا الى وضعه فوق عداد الكهرباء . كان هذا ابعد مدى وصلت اليه . ورغم ذلك استطعن الوصول . هده المرة وجدته فى مكانه . عليه صورة البقرة كما هى . تغيرت ضحكتها قليلا . أحصيت الأوراق الباقيةو حسبت

ماله عندى ثم عدت الى الداخل وأخرجت النقود من جيب البنطلون الملقى على الفراش .

مددت يدى اليه بالنقود . كان دائما يأخذ النقود ويدرسها فى جيبه دون أن يحصيها . ولكنه هذه المرة وضع (الكوز) على قمة (السطل) وبلل أصابعه وأخذ يعد الجنيهات فى بطء . اقتربت القطة من السطل وأخذت تلحس القصدير (كان لسانها الوردى الصغير يعمل فى دأب . حين رفعت عينى كان الرجل قد توقف عن العد واستغرق فى تأملي . قال فى لهجة حائرة :

- هنالك جنيه زائد .

قلت فى لهجه باترة حتى لا يتمادى الحوار فيما بيننا :

- هولك

لا نت ملامحه وبدت على شفتيه ظلال ابتسامة شاحبة :

- أنت لست غاضبامنى إذن..

- كلا .. لا يوجد ما يجعلنى أغضب منك ..

- لماذاتريد أن توقف التعامل معى . هل هناك تاجر آخر ؟ .

- كلا ..

- هل هناك سعر أرخص ؟

- كلا .

- لماذا تفعل هذا إذن . قطع أعناق ولا قطع أرزاق .

كنت اتمنى فقط أن يحمل إناءه وينصرف . أن أعود الى درجة الصمت

التى جاهدت طويلا من أجل الوصول إليها . كان وجهه عجوزا . مجهدا كلحاء الشجر . وحول عينيه هالات من السواد . لم يكن ينام الليل هو أيضا . من أين جاءت هذه الشيخوخة ، المفاجئة ، .ظل يحدق فىّ حتى اعتقدت أننى أنظر فى مرآة . وأن هذا وجهى عاد يقول :

– أنا أعلم أن الاسعار فى ارتفاع مستمر . ولكن هذا ليس ذنبى . نصيبى من الربح لا يتجاوز الفتات أنا وأولادى لا نذوق قطرة من هذا اللبن . لانجرؤ على ذلك .

هل اتراجع من أمامه ؟ .. هل أغلق الباب فى وجهه . كانت القطة قد وضعت ساقيها الاماميتين على الاناء وأخذت ترفع رأسها تحاول الوصول الى كوز اللبن . أزاحها بقدمه فابتعدت قليلا وهجعت بجانب الجدار متحينة لحظة الاقتراب . قرر الرجل أن يحاول إقناعى بطريقة أخرى .. قال :

– اتعلم .. أنا لا أغش . لا اجرؤ . على هذا أيضا . زمان كنا نضيف الماء الى اللبن . كل شئ كان نقيا . ولكن الماء الآن أصبح فاسدا . لو اضفناه لأفسد اللبن قبل أن نصل به الى الزبون .. أننا مرغمون على بيع اللبن نقيا .

ورفع السطل .. من على الأرض وضعه تحت أنفى تماما وهو يؤكد كلماته:

– انظر .. حليب نفى كقلوب العزارى .

– أنا متأكد من أنه نفى رغم عدم تأكدى من قلوب الغدراى .

ابتسم لأول مرة ولانت ملامحه وخفت حدة التجاعيد ورفع ، الكوز ،

وهو يقول :

- هات الاناء وخذ راتبك . الله لايقطع لك راتبا !! .

توسلت إليه :

- لا أريد .. صدقنى ..

أخذت القطه تحك ظهرها فى الجدار. وارتفعت درجة التوتر بيننا مرة أخرى . من الواضح أنه لم يكن يفكر فى الانصراف ولم تعد لدى الجرأة على إغلاق الباب فى وجهه . مد يده وتناول السطل وبدلا من أن ينصرف توجه الىّ حيث تقف القطة وسكب أمامها قليلا من الحليب . حدقت القطة فيما يحدث أمامها فى ريبة . نظرت الى كأنما تستطلع رأيى ثم مدت لسانها الوردى الصغير وأخذت تلعق قطرات الحليب فى سرعة . استند الرجل الى سياج السلم وبدأ يتحدث ببطء كأنما يستعيد من ذاكرته كل الصور القديمة.

- لقد شاهدت بناتك وهن صغيرات . كن أشبه بهذه القطة . أياما كثيرة صعدت هذا السلم المهلك من أجلهن فقط . لم يكن المكسب يستحق كل هذا الجهد . شقتكم وحدها هى التى كنت أصعد إليها ، لم يكن هناك مايوازى ألم الصدر . وتقطع الانفاس . ولكننى كنت اعتقد ، أو كنت أوهم نفسى بذلك ، انهن يجلسن فى انتظارى . وانهن سوف يحزن إذا حانت لحظة الطعام ، ولم يجدن كوب الحليب الدافئ .

كان يحاول محاصرتى . كان يتأمل وجهى ليرى تأثير كلماته علىّ قلت بصوت محتقن :

- كف عن هذا .. لن يجدى معى .

لم يبـال باعـتـراضى . اقـتـرب وشب على أطراف أصـابعـه يحـاول ان يشاهد محتويات الشقة من فوق كتفى .. قال:

– أين هن .. أريـد أن أحكى لهـن عن آخـر أخـبـار البـقـرة . كن دائـمـا يسألننى عن صحتها وعن طعامها .

مددت يدى ودفعته دفعة خفيفة .

– ابتعد .. أرجوك .

صاح فى وجهى بحدة :

– ليس لك الحق .. لا حق لك أن تمنعنى .

لم يشـأ أن ينصرف بسـهولة . ولم يشـأ أن يرحمنى ، لـم يرحـمنى . لم يرحـمنى أحـد . ولـم يرنـى أحـد . كـان يـكفى أن أعـود خطوة واحـدة . الى الداخل فـأتعـثـر فى بقـايا اللعب . لماذا كن دائمـا يحـببن اللـعب المتكسـرة . ولماذا كـن ينثـرنهـا فى كل مكان . ولـماذا تركن خـلفـهن كل بـقـايا هذه الأصوات . كنت دائما اسمعهن فى الليل .

فى نفس السـاعـة من كل يوم . تصـيح إحـداهـن فـجـأة كـأنهـا تحلم . أو كـأنهـا تـناديني من خـلال الحـلم « اسـقـينى يا أبى » فـأنهـض نصف نائم . عرقـان . فأمـلأ الكوب وأبدأ فى البحـث عن مصدر الـصوت .. « اسـقـينى يا أبى » فـأدور حـول نفـسـى « اين انتن يا بنـات يا سكر بنـات . ربما تركـوا الأسرة الصغيرة ليناموا فى مكان آخر اكثر اتساعا . حملتهم يد الحلم إلى أرض لا عطش فـيـهـا . لـسن أمـام التلـيـفـزيـون . ولسـن مـخـتـبـئـات تحت منضـدة الطعـام . ولم يأخـذن مـلاءات السـريـر كى يصنعن منها خـيـامـا . تصـيح الصـغيـرة .. اسقـينى يا أبى . فأصـيح أنا أيضا : اخـرجن يا شقـيات

سوف أقتلكن من قوة القبلات .

الماء يصبح ثلجا . والليل يزداد بردا . والمصابيح تحترق من تلقاء نفسها . وأنا الأب الوحيد الذى عجز عن سقى بناته حين حانت لحظة السقيا . فهلا غفرتن لى أن أشرب الماء وحدى . وأعاود النوم وحدى وأصم اذنى عن أى نداء .. يا بنات يا سكر نبات .. اصمتن قليلا لعل هذا الليل يمضى .

حاولت أخيرا أن أغلق الباب ، ولكنه وضع قدمه الضخمة أمام الضلفة الخشبية وعاد يلحف فى السؤال :

- بالله عليك يا سيد . قل لى لماذا لا تريد ان تشترى منى لبنا . صدقنى لن تطول عظامهن . وقد تتوقف كل علامات النمو

صحت به :

- الم تفهم بعد ؟ لم يعد لى اطفال . ذهبوا وتركونى .. لم يعد هنا إلا انا وحدى والجدران .

حدق فىّ مدهوشا . أدرك أننى لا امزح ، ادرك أنه من لم يكن من الممكن أن نقف كل هذه المدة دون أن يحضرن مسرعات . يندسسن كالقطة وسط أقدامنا . توقفت القطة عن لعق اللبن وبدأ الرجل يتراجع من أمامى ويهبط السلم وقد عاودته حشرجات الأنفاس ثم ابتعدت الخطوات . واختفى صوت الانفاس وظلت القطة أمامى . تحدق فى بعينيها اللتين تشبهان عيون الأطفال . كنت وحيدا لدرجة بعثت الرهبة داخل نفسى . تنحيت عن الباب ودعوتها الى الدخول .

١٩٩٠

قتيل ما .. في مكان ما ..

كان الابُ هو الذى تلقى البرقيةَ ، فى ذلك الصباحِ الباردِ ، ساعى البريد كان صغيرا ، شاحبا كالموتِ ، مد أصابعه الطويلةِ بالبرقيةِ ثم اختفى من أمامِ الأب ، كأنه كان مجرد قطعةٍ من ضبابِ الصباحِ تجسدت ثم تبخرت سريعاً ، سمع فقط أصوات دراجته وهى تحاول عبثاً النفاذ من الدربِ الضيق ، ولكن البرقية لم تتبخر ، ظلت ملقاة فى راحة الأب وهو يتأملها دون أن يفضُها ، كان يدركُ بطريقةٍ غامضةٍ ما بداخلها ، هو الوحيد الذى أيقظه جرسُ الدراجةُ ، وهذا يعنى أنٍ لديه فسحةً منِ الوقتِ للتردد .. ولمضغ المخاوفُ ، ولترديد البسملةَ وبعض التعاويذ ، اتقاء للقدر المحتوم ..

كان شكلُ البرقية ، وشارةُ الجيشُ المرسومةِفى أحد الاركان ، تنبئه بكل شئ ، فكر ، لن استطيع قراءتها وانا واقف ، وبحث عن مكان فى ركن الفناء ليتكوم فيه ويختفى مؤقتا عن العيونِ .. ثم فرغت البسملات ، ولم تُجد التعاويذ وكانت حروف البرقية متكسرة ، متُباعدة الكلمات ، مليئة بالنقاط والفواصل ، ولكنها فى النهاية تؤكد الاسم والعنوان وموعد وصول الصندوق .

قال لنفسه لاراد لقضاء الله ، ثم ضم ذراعيه حتى لا يسمع أحد صوت

ارتجافة جسده ، وظل الصباح الباهت يطل عليه من نافذة الفناء .. سرعان ما ينتشر الخبر وسط الدرب الضيق والبيوت المتلاصقة وهذه لحظات الحزن التى لن يشاركه فيها أحد ، هذه فرصته لأن يبكى دونِ خجل ودون تماسكٍ زائف ودون أن يكون مرغماٍ على أن يردد الكلمات المحفوظة ، هذه فرصته لان يتذكرهُ كما كان .. صغيراً ، كبيراً ، ضاحكاً باكياً ، فرحا ، بائسا ، تعبا ، حالما ، خائفا ، ترى .. ماذا يكون شكله وهو ميت ؟ .. ماذا أخذ منه الموت .. ؟ .. وماذا ترك .. ؟ .

ثم سمع صوت حفيفِ اقدامها وهى تعبرُ فناءَ البيت قادمة اليه ، شم رائحة عرقها من أثر النوم ، ولم يجرؤ على ان يرفع وجههَ اليها ، حتى جلست أمامه ، بالله ، كم اصبحت عجوزا ، وكم مرت السنواتُ سريعاً .. وكم أصبح من المستحيل تعويض أى شئ . رأت البرقية ولم يكن هناك أى خطأ فى الاستنتاج .. كل شئ كان متوقعاً منذ الوداعِ الاخيرِ ، وتباعد الاجازات ثم انقطاع الرسائل .. رددت فى صوت خافت .

– حقا .. أهو فيصل حقا .. هل مات حقا ؟ ..

وظلت تردد كأنه كان مستعصيا على الموت .. استنفر الأب كل عروق جسده كى يهتف بها :

– استشهد ..فى الحرب دائما يستشهدون ..

كأن هناك فرقا وكأن هناك أى أهميه لتبديل الكلمات .. أخذت تحدق فى حروف البرقية المتكسرة ، لم تكن تعرف القراءة ، ولكن لو كان ثمة خطأ فسوف تحس به ، من المستحيل اختصار سنوات من الحلم والتعب والحب والمرار ة فى الحروف الغامضة المتكسرة ، نظرت حولها ، الأب غرق فى صمته ، والجدران عليها قطرات من ماء الملح الصامت ، والاثاث

القديم المتكسر مكسو بغبار صامت ، عالم ثابت ومستتب . والصمت يمسك بخناق كل شئ ، ويمنع الكون من التنفس ومن الانفجار .. كان على كل شئ أن يستيقظ وان يعلق على فجيعتها المنفردة ، صاحت فى صوت مجروح :

- يا ولدى .. يا ولدى ..

صعدت الصرخة الى الطابق العلوى ، واعتقد سليم ان مدفعه قد اصاب احد الطيور فتناثر الريش وتقطر الدم وصرخ الطائر محتضرا ، تبدد الدفء من جسده فنهض وهو يرتعد ، نظر حوله بعيون نصف غائبة الى معالم حجرته ، ياله من حلم ، حتى فى الاجازات الميدانية القصيرة تلاحقه احلام القتال .

« وطفة» ما زالت نائمة ، رأسه ملفوف فى جذلات شعرها مستكينة للحظات الدفء والمؤانسة فى الفراش بعد ليال الوحدة الطويلة ، ذراعاها ناصعتان ، وصدرها عريض يتحرك فى انتظام ، وابتسامة الرضى تملأ وجهها ، كيف تسللت الصرخات الى أحلامه اذن ؟.. عادت الصرخة ولم تكن حلما ، واستيقظت « وطفة » مفزوعة ايضا ، وقفز سليم من السرير وهو يهتف :

- انها أمى ..

ماذا يلبس .. ؟ .. حلته العسكرية أم ثيابه العادية ؟ .. أحست وطفه ايضا انها عارية أكثر مما ينبغى ، جسدها الذى لم ينجب بعد ما زال متفجرا بشوق عارم للحياة ، نزعت نفسها من الدفء وقد أدركت بصورة مبهمة أن هذه الاجازة القصيرة قد ضاعت هى الاخرى ، وان البذرة التى تبحث عنها قد تأجل وضعها ..

هبطا السلم مسرعين ، وكانت نظرة واحدة لسليم كافية لأن يدرك ما حدث .. الاب والام فى نفس جلستيهما ، مكومان فى الركن ، والبرقية ملقاة على الارض ، كان عدد الموتى لم يكن كافيا ، جلست «وطفة» فى مكانها ، بينما وجد سليم أنه يجب ان يواصل النزول ، وأن يسير اليهما ، وأن يجلس وأن يضع يديه واحدة على كتف أمه والاخرى على كتف ابيه .. وان يقول شيئا بوصفه الاخ الاكبر الذى يجب أن يهب العزاء للجميع قال:

– لقد اختاره الله لانه أحسن منا ..

دون جدوى ، ضمت وطفة المعطف على جسدها فى خجل .. كانت تريد ان تخفى الرغبة التى راودتها منذ لحظات فى الحمل والانجاب .. امام الموت تصبح كل الرغبات إثما .. تذكرت لمسات الامس فتحول كل شئ فى داخلها الى دبيب من الوخز المؤلم ، ملأ أطرافها بالبرودة وعبر فناء الدار رأت «ياسر» أصغر الاخوة الثلاثة وهو يقف خلف النافذة المطلة على الفناء ، يمسك؛ بيده قضبان الحديد ويضع رأسه عليها وعيونه الواسعة المليئة بالرعب تراقب ما يحدث وهوصامت تماما..

رائحة الموت لاتختفى ، تنتشر من فناء البيت الى عتمة الدرب الضيق الذى لا تجرؤ الشمس على دخوله .. تنسرب الى شقوق الجدران بين الطلاء المتساقط والرسوم الحائلة وبراز الاطفال الجاف وبقايا ذكريات اللعب، تكتسب لون عطن المطر الاخضر ، وصفرة الريح الصحراوية ثم تنام على أطر الصور القديمة حيث يبدو الاهل وهم يبتسمون فى بلاهة ابتسامات معذبة ، تستدير مع البروزات فوق قطع الفضيات وتكسبها ذلك اللون الداكن الكئيب وتربض فى قوارير العطر التى نفد مافيها من طيب وبقى ما فيها من رائحة ثقيلة ، تسكن وسط قش الاحجبة وتكسب لون

التعـاويذ ، وتتكوم وسـط كلة السـرير ، ثـم تزدهـر مع ورد الصبـار الذى ينمـو فى خجل فى أحـد الاركـان ويموت دون أن يلحظه أحد بينمـا تظل الاشواك مشرعة اطرافهـا ، تدخل الصـوانات حيث تختزن الملابس القديمة المليئة بحبات النفتـالين وعلب المجوهـرات الزائفة التى يورثها الآباء للاحفاد محاطة بكل هالات التقديس ،

رائحة الموت لا تغادر ابدا هـذه الامـاكن ، يتعـودون جـمـيعا عليهـا ولا يستيقظون الا اذا زادت وطأتهـا وأصبحت شديدة الزخم ، ساعتهـا تبـدأ طقوس العديد ويخلع الجميع ثيابهم الملونة فتـبدو تحتهـا الثيـاب السوداء الحـائلة ويتدافع الجـمـيـع الى فناء الدار حـيث مـازال الاب مـرتجـفـا والام صارخة والبرقية ملقاة على الارض .

جلس جمع النسـوة الاسود فى فناء الدار ، وانسـحب الاب الى القـاعة المجاورة هـو الأخ الاكبر كى يكونا فى انتظار الرجال ، انتهت لحظات الحزن الخاصة القصيرة .. وبدأت الطقوس التى يجب ان يتـشارك فيها مع الجميع .. كأن لحم فـيصل لا يخصه وحـده ، وكأن على الجمـيع أن يتشاركوا فـيه معه .

الجيش و الدولة والجيران ، جاءوا جمـيعا ، حـتى «سمعان» التـاجر فى أول الدرب جـاء ، وجلس بجانبه واخذ يربت على كـتفـه برفق كلما حـانت الفرصة لذلك .

كـانت الام قد استنفـدت كل طاقاتهـا من الصـراخات ثم هـدأت ، كـانت تنظر حـتى يأتى الصندوق وترى الجثمـان ، ربما كـان هناك احـتـمـال ولـو بالغ الضـآلة للخطأ ، أحـضـرت قـطعة من القـمـاش الاسود ووضـعـتهـا على ركبتها واخـذت تخيط فـيهـا ، تضع مع كل غـرزة قطعة من حزنهـا ، كانت

ستعلقها على باب البيت حتى يعلم الجميع أن هناك شهيدا خرج من هذا البيت ولن يعود اليه ، حاولت بقية النسوة مساعدتها ولكنها رفضت .. ظلت تواصل دفع الابرة بأصابعها المرتعدة حتى امتلأت بالثقوب الصغيرة الدامية ، ولم تتوقف الا عندما جاءت « عائشة »

كانت «عائشة» ترتدى السواد الذى ينسدل على جسدها النحيف ، وشعرها الذى ينسدل على كتفيها المرفوعتين ، وعيونها الواسعة تملأ وجهها ، تقف عند الباب وتتطلع الى الجميع ، كان والدها الذى جاء برفقتها قد تسلل سريعا الى غرفة الرجال وتركها وحدها فى جهة الام . الموت اخذ منها نفس الرجل ، وجرح منها نفس القلب ، كان قد قال لها .. يا عائشة .. أضيئى شمعة فى نافذتك حتى اذا عدت فى الليل رأيت ضوءاً يهدى قلبى ، فأوقدت كل الشموع دون أن يعود .

حين التقيا وحيدين على حافة النهر ، وغاصت أصابعه فى جدائل شعرها ، ونامت يده على صدرها ، قال : الواحد لا يستطيع الافلات من الحب ولا من الحرب .

كانا صغيرين على هذا الزمن ، وعندما انكشف أمرهما أصابهما ارتباك مروع . واعلنت الخطبة ليلة الذهاب الى الجبهة ، وقال الاب .. لولا أن هذا زمن الحرب لقتلتنا الفضيحة .

عائشة مازالت واقفة عند الباب ، عضلات وجهها مشدودة كأنها تحاول دفع الحزن ، عيونها الواسعة قد خزنت كل الدموع تحولت فيها الى ألق لا ينطفئ ، لم تر أحداً الا ياسر وهو مازال فى جلسته خلف قضبان النافذة ، رأته وهو يمد اليها يده المرتعدة برسائل فيصل خفية حتى لا يراها أحد ، وهو يختفى فى ظلمة الدرب حاملا موعدا مفاجئا ويقتطع من

ذكرياته مكانا عزيزا لاسرارهما ، وهو يقول لها ما بين الضحك والجد .. فيصل سيتزوجك من أجلي .. فأنا في الحقيقة الذي يعشقك ، ويمضي ليأتي فيصل ، لا يحمل زهورا ولكن للمسته رائحة الزهور ، تقف عائشة بالباب ترى أخيرا الأم وهي تخيط في العلامة السوداء ، وسوف تعلق على الجدار المشترك بينهما ، سواد قاتم لا يؤثر فيه أي لون ، خطت ببطء اجتازت النسوة السود وجلست بجانبها ، رفعت الام عينيها وتركت لها جزءا من القماش ، سحبته على ركبتيها وبدأت تخيط في الناحية الاخرى .

كانت وطفة مازالت تبحث عن ثوب أسود .. هناك أكثر من ثوب .. ولكن جسدها يأبى الدخول في أي منها .. كان في أقصى درجة من درجات الجوع .. في أقصى طاقة من تفتح خلاياه .. الطبيب هو الذي اخبرها بذلك ، طلب منها أن تحسب منتصف المدة من مجئ الدورة الشهرية ، وأن توافق اجازات زوجها مع هذا الوقت .. وحتى الان ..كان جسدها يرفض الاعتراف بوقع الفجيعة ، كانت حزينة ، قلبها كان حزينا ولكن جسدها مازال عاصيا عن الحزن ، الخلايا متنافرة ، لا تكف عن الانتفاض ، واللون الاسود يحاول عبثا الإطباق عليها ..

تساءلت .. ترى .. هل ينمو سليم حتى ميعاد الدورة القادمة .. ؟ .. هل يمكن أن تهدا حدة الحرب قليلا حتى تهدأ مراسم الحداد .. كانت وطفة جائعة .. وهمهمات الحزن القادمة من أسفل تزيد من حدة هذا الجوع ، أمسكت بأقرب الاثواب اليها وأدخلت جسدها فيه بسرعة وعنف ولكن الثوب تمزق ، كشف عن لحمها الابيض وقد أصبح أكثر نصوعا .. نظرت اليه .. ثم أجهشت في البكاء ..

قال سليم :

– انا الذى سأعلق العلامة ..

حاول الرجال أن يثنوه وأن يقوموا بهذه المهمة بدلا منه ، ولكنه تناول القماش الاسود من على حجر أمه وحجر عائشة ، لم تكونا قد فرغتا بعد. ولو ترك لهما الامر لظلتا تخيطان الى الابد ، سار الى خارج المنزل وتطلع الى الجدران الحائلة ، كان يريد مكانا نظيفا ، جيد الطلاء على الاقل ، ولكن كل شبر من الجدران كان يحمل أثار ذكرى من الزمن .. كلمة غامضة .. أو رسمة ركيكة ، أحضر واحد مطرقة ، وأخر بعضا من المسامير ، وثالث سلما ، ورأى سليم نفسه وهو يصعد ، ويثبت العلامة ، ويدق فتتأوه الجدران وتتلاصق البيوت .. ترى كم علامة سوداء سوف تتركها الحرب خلفها .. ؟ .. قال الاخرون :

– دعنا نثبتها بدلا منك يا سليم ..

انتبه الى أن يده تحمل المطرقة ، مرفوعة فى الهواء ، بلا حركة ، بدأ يعاود الدق ، وفى هذه اللحظة ارتفع صوت السيارة ، اشبه بحيوان غاضب يسير فى مخنق ، تزحف وسط الدرب الضيق بلونها الاصفر المائل الى الخضرة وتكاد تحف فى جدران البيوت المرتعدة ، كانت السيارة تعانى من اعياء رحلتها الطويلة من خط النار حتى الازقة الخلفية التى يسكنها بشر منسيون .

ظل سليم فوق السلم ، والشارة نصف مثبته ، والسيارة اقتربت الى أقصى ما تستطيع ، وبدا بلا أدنى شك أن الامر حقيقى ، أن الصندوق بداخلها ، والجثة بداخل الصندوق ، وأن هذا هو كل ما بقى من فيصل الصغير الذى كان يلعب فى تراب هذا الزقاق ، سكن محرك السيارة وعاد الصمت الحزين ، ولكن الضابط مالبث أن قفز من مقدمة السيارة وسار

مسرعا الى حيث يقف سليم وحيث تتدلى الشارة وصاح فيه بلهجة جافة :

- ماذا تفعل .. انزلها فورا ؟ ..

وفوجئ الجميع بتلك اللهجة الخشنة العالية النبرة ، ولم يدر سليم ماذا يقصد الضابط . ظل فوق السلم ويده مرفوعة بالمطرقة ، والناس حوله ينظرون فى بلاهة .. ولابد أن مشهده قد زاد من عصبية الضابط الذى عاد يصرخ :

- قلت لك انزل هذه الشارة ..

مد سليم يده لينزعها فلم يستطع .. قال للضابط :

- هناك شهيد ..

وهز الضابط رأسه فى ضيق ، واستدار نحو السيارة وهو يشير صائحا :

- انزلوها ..

قفز ثلاثة من الجنود ، اندفعوا فجأة ثم وقفوا فى تردد ، نظروا لسليم والناس وشموا رائحة الحزن فتوقفوا وهم يعانون من نفس الحيرة .. غرقوا فى الصمت المهيب الذى يغلف كل شئ . الوحيد الذى كان قادرا على الحركة هو الضابط الذي تقدم في حركة حاسمة ومد يده ونزع الشارة السوداء من علي الجدران وألقاها علي الأرض وصرخ في الجنود :

- انزلوا الصندوق ..

استيقظ الجنود وهرعوا إلي مؤخرة السيارة ، كان هناك جنود آخرون

وسمع الجميع صوت احتكاك الصندوق بقاع السيارة قبل أن يظهر ، كان الذين في الأعلي يرفعونه وكان يهبط مائلا كأنه علي وشك الانحدار ، وكان الذين في الأسفل يستديرون كي يحملوه علي أكتافهم ، كان يبدو ثقيلا رغم انهم يعرفون جيداً ضآلة جسد فيصل ومدي نحوله ، همّ بعض الواقفين من أهل الزقاق بالتحرك ولكن الضابط اشار لهم في حزم أن يتوقفوا ، لم يكن دورهم قد جاء بعد .

حمل الجنود الصندوق أخيراً ، استداروا به من خلف السيارة إلي المقدمة وأشار لهم الضابط فوضعوه علي الأرض بالقرب من باب المنزل بجانب الشارة السوداء ، وتقدم جندي من مقدمة السيارة وهو يكاد يعدو. قدم للضابط حافظة من الأوراق ، فتحها بسرعة وأخرج منها عدة أوراق وقلما وتلفت حوله وهو يقول في نفس الحدة :

– أين أبوه ؟..

شعر الجميع بالخجل من فرط حدته ، أخفض سليم رأسه وهو يقول :

– بالداخل ..

– نادوه حالا ..

وقبل أن يتحرك أحد ظهر الأب عند الباب ، لم يكن يتوكأ علي أحد ، كان مصمما علي أن يعيش المحنة من لحظة البداية حتي النهاية ، ألقي نظرة علي الصندوق وتأوه في خفوت ثم قال بصوت مرتعد للضابط :

– بارك الله فيك يا ولدي ..

لم يتأثر الضابط .. لم يبد عليه انه راي الأب أو سمع صوته لأنه هتف

في نفس الحدة وهو يمد الأوراق :

- وقع في آخرها ..

ارتعشت أصابع يده ، هبط سليم واقترب ، ولكن الضابط حدجه بنظرة ألزمته مكانه ، قلب الورقات حتي تمكن الأب من التوقيع فيها جميعا، كان صوت القلم خافتا وحادا وقصيرا كصوت الطيور المذبوحة ، قلّب الضابط خمس ورقات كاملة ، ثم التقط القلم من بين أصابع الأب في حركة سريعة وطوي الأوراق وأعادها للحافظة وأشار للجنود الذين كانوا واقفين عاجزين عن التصرف الصحيح وصاح :

- اركبوا ..

فاستداروا وركبوا جميعا ، وأصدرت السيارة صوتا موحشا وهي تعود للوراء تحف في البيوت وتسقط الطلاء وتثير الأتربة وتتركهم جميعا في مواجهة الصندوق الصامت ، ظلوا واقفين حوله وكان سليم هو أول من خدش جلد الصمت فقال وهو يشهق :

- لا يوجد علم .. الصندوق عار ..

وفطن الجميع فجأة أن الصندوق لا يغطيه أي شئ ، لا يوجد إلا لون الخشب غير المشذب ورؤوس المسامير المعدنية مازالت بارزة .. كان قد أعد علي عجل وبلا اهتمام ، وكانت هناك كلمات مكتوبة بالطلاء الأسود وبخط ركيك فوق ظهر الصندوق ، ثلاث كلمات فقط ، قرأها سليم أولا ولم يجرؤ على التلفظ بها ، ثم قرأها الآخرون في نفس الصمت .. «قتل لأنه جبان» ..

قال يا عائشة .. مسى جبهتي بيدك ، فالنهر بارد وجسدك دافئ

والطيور ضلت طريقها بين الطين والرماد.. ومد يده فلمست أصابعه البروز الصلد في ثديها فارتعدا معا، وسرت في النهر نشوة غريبة وغيرت الأسماك قشورها وناما معا مبللين فوق العشب النضر ، وكان الليل فريدا ، النجوم فيها ألق من كل الشموس الغاربة ، قال يا عائشة .. إذا مت فلا تتركيني في العراء .. ، فما أمرّ أن يكون كفني الريح وقبري السحب .. فإن السحب باردة قاسية يا عائشة تأخذ الغريب إلي مسارب الأرض البعيدة ، السحب ساحرة كعينيك ياعائشة .. ولكن السماء بعيدة وخادعة.. ثم تسلل إليها في الليل، وحلما في الفراش الضيق بطيور النهر وهي تخرج من شراشيف «الدانتيلا» التي تحيط بأعلي السرير وقال ياعائشة .. إذا عدت حافيا فانزعي أشواك الصبار في باطن قدمي وأعد لي الماء الساخن بالملح والخل والمر .. قالت عائشة :

– غير صحيح ..

كانت واقفة بجانب الأب .. وجهها للصندوق ، وعيناها غائرتان في الكلمات .. وعادت تقول بصوت عال حتي يسمعه الجميع :

– غير صحيح ..

ارتعد الجميع ، استند سليم إلي الجدار ، اكتشف أن الشارة السوداء تحت قدميه فأزاحها في رعب وظل الأب يقلب بصره بين الصندوق وبين ما يحيطون به غير فاهم بالضبط ، ثم تقدم ، انحني علي الصندوق وقرب عينيه من الكلمات لأقصي ما يستطيع ثم رفع رأسه وحاول أن ينتصب فلم يستطع ، انهد جالسا بجانب الصندوق وهو يقول مستغيثا بما في داخله :

– يا ولدي ..

ثم بدأوا جميعا يتحركون في حركات عشوائية ، داروا في أماكنهم ، داروا حول الأب والصندوق .. قال أحدهم فجأة . تأخرنا .. وجري بعضهم إلي غرفة الرجال .. وقال واحد أخر .. كان يجب ألا يفعلوا بنا هذا.. ولم يفهم أحد ماذا يقصد .. بدأوا يغيرون الاتجاهات .. تراجعوا بظهورهم كما تراجعت السيارة ، ثم استداروا وانصرفوا مسرعين .. هتفت عائشة :

- يجب أن نقيم له العزاء ..

أحست عائشة أنها وحيدة تماما .. غاية في الضعف ، لا تستطيع أن تفتح الصندوق وتراه للمرة الأخيرة ، ولا تستطيع أن ترتمي عليه وأن تبكيه ، واستندت إلي ضلفة الباب وحاولت التقاط أنفاسها ، كانت الدموع قد بدأت في التكون في داخلها أخيرا ، صعدت من قلبها إلي فراغ صدرها وتجمعت في عروق رقبتها ولكن أباها كان واقفا أمامها يقول في لهجة هادئة ولكنها حازمة :

- فلننصرف يا عائشة ..

قالت : أريد أن أبقي معه ...

ألقي الأب نظرة سريعة علي الصندوق والاب والأخ وقال بنفس الهدوء:

- لم تكن إلا خطوبة مؤقتة ، كلام وفاتحة ، أنت بنت عاقلة .. هيا ننصرف ..

امسك ذراعيها ، كان ظاهراً أنه يسندها ، ولكنه كان في الحقيقة يقبض عليها بقوة آلمتها .. قالت في توسل :

- أرحمني يا أبي ..

قال من بين أسنانه :

– ارحميني أنت من الفضيحة ..

وجذبها فانصاعت إليه مرغمة وألقت علي الصندوق النظرة الأخيرة .. الكلمات السوداء ، ورؤوس المسامير وشذرات الخشب ، ولم يتركها أبوها حتي دخلا من باب البيت وغاب كل شئ .

كان الرجال ينصرفون منحنى الرؤوس في سرعة وصمت ، يمرون بالأب والأخ والصندوق ، كأنما يفلتون من مصيدة دخلوها دون قصد وفطنوا إليها قبل أن تطبق عليهم ، لم يتوقف أحد منهم إلا سمعان التاجر، تمهل وهو يفرك حبات المسبحة ويزفر أنفاسه في صوت عال حتي أرغم الأب علي أن يرفع بصره إليه ، كان يهز رأسه هزات متتابعة وعلي وجهه ابتسامة عابسة ، وفطن الأب أنه مدين لسمعان ، وأنه لن يستطيع أن يوفى دينه ، لقد ذهب فيصل دون مقابل ، وسمعان يدرك ذلك ، سقطت رأس الأب حتي اصطدم بالصندوق وأحس بحسرة وألم وهتف متوسلا :

– يا ولدى ..

فاضطر سمعان للانصراف ، ثم بدأت النساء تتسللن والأم في مكانها دون أن تشعر بهن علي الإطلاق ، وبدأ البيت خاليا ، والدرب مقفراً ، وأوصدت كل الأبواب ، وأعيدت كل المزاليج ، وساد الصمت ، صمت لحظة الخلق الأولي قبل فساد كل شئ ..

تحرك سليم ، تخطي عتبة الباب ، وعبر أمه وهي جالسة وحيدة في منتصف الفناء ثم صعد السلم ، وطفة مازلت جالسة في مكانها ، لحمها الأبيض بارز بإهمال من خلال ثوبها الممزق، نهضت ثم سارت خلفه ،

دخلا الغرفة ، بدأ يخلع جلبابه وهو يصيح مرتعداً :

- يجب أن أعود فوراً ..

هتفت وطفة :

- إلي أين ؟ ..

تناول الحلة العسكرية .. وبدأ يقلبها مرتبكا وهو يقول :

- إلي الموقع .. ؟

- مستحيل .. لا يمكن أن تتركنا في مثل هذا الوقت .. الأجازة لم تنته .. صاح وهو يبسط أمامها يديه المرتعدتين :

- افهمي .. يجب ألا يعرفوا أن أخي قتل هكذا ، سوف يسئ هذا إلي الكثير سيخفضون رتبتي .. وقد ينزعون مني مهماتي وسلاحي .. سوف يحققون معي أيضا وقد يثبت التحقيق أنني غير أهل للثقة ..

هتفت وقد بدأت تشعر بالحنق من شدة فزعه :

- ولكن ما ذنبك أنت ... فيصل هو الذي مات ..

طفرت الدموع من عينيه وهو يضع الأزرار .. ويبحث عبثا عن غطاء الرأس :

- قتل لأنه حاول الهرب ، هناك رماة متحفزون دائما في الخطوط الخلفية لا يفلتون أحدا .. قتل لأنه هرب .. سوف يلصقون بي التهمة .. سوف يقولون أنني متعاطف معه .. ألا تفهمين ..

دس قدميه في الحذاء الغليظ ، فجلست وطفة بجانبه وهي تقول :

- ابق معنا ، مع أبيك .. مع أمك ..

من العبث أن يتذكر حقائق لا يستطيع أن ينساها ، هتف في حرقة :

– لا أستطيع .. ليتني أستطيع ..

خـرج من الغـرفـة ، هبط السلم ، عـبـر الفناء ، وتـردد لحظة أمـام الصندوق والأب المنكفئ ، ثم حزم أمره وسار مسرعا فوق أرض الزقاق دون أن يجرؤ علي الالتفات ، تأمل الأب ظهره وهو يبتعد ونظر حوله ليري إن كان أحد يري ما يراه ، أو يصدق ما يصدقه ، الأم مازالت صامتة، ووطفة واقفة علي السلم ، وياسر غير موجود .

في هذه اللحظة كانت عائشة توقد شمعتها الأولي ، وتزفر دمعتها الأولي ، في هذه اللحظة كانت الأم تري الصندوق جيداً ، وتتساءل : هل وضعوا مع جسده ما يكفي من الشيح والزعفران ، هل لفوه في الرقائق الكافية من الكتان والقطن ، هل غسلوه بالماء الكافي ، هل صلوا عليه الصلاة المناسبة ، هل اتيحت له الفرصة لينطق بالشهادتين .

هبطت «وطفة» من فوق السلم ، وجدت أنه لا فائدة من الحديث إلي الأم . اتجهت إلي الأب ، فطنت إلي لحمها الأبيض البارز فتناولت الشارة السوداء من الأرض ولفتها حول جسمها ووضعت يدها علي ركبة الأب فأدار إليها بصره ، كانت عيناه مملوءتين بالدموع فلم يرها بوضوح ولكنه سمعها تقول :

– يا عمي .. إكرام الميت دفنه ..

قال الأب :

– أعرف يا ابنتي .. الله يكرمه ويكرمنا .. ماذا افعل وقد أصبحت وحيداً ..

مدت وطفة يدها بعدة أوراق حمراء :

- هذا كل ما في البيت من نقود .. خذها وانهض ، استأجر سيارة تذهب به إلي المقابر .. توكل علي الله .. توكأ علي ياسر واذهب ..

وعادت إلى الداخل ولكن ياسر لم يكن موجودا ، ربما كان الأمر بالغ القسوة عليه ففر إلي مكان ما ، عادت ووقفت أمامه صامتة .. فهز الأب رأسه وهو يقول في أسي حقيقي :

- هو أيضا غير موجود ..

واستند إلي الصندوق حتي نهض واقفا وقال في بطء :

- انتظرني يا ولدي ..

وبدأ يخطو خارجا من الدرب ، وجلست وطفة بجانب الأم أمام الصندوق ، وفكرت الأم أنه قد ينهض في هذه اللحظة كي يرد علي الجميع ، وتقدم ياسر الصغير من أقصي الغرفة الداخلية ، وتعجبت «وطفة» كيف لم تره حين كانت تبحث عنه ، وجثا أمام الصندوق ، وبدأ يقرأ آيات الفاتحة بصوت خافت بطيء كأنه يزن كل آية قبل أن ينطق بها .

القاهرة في ٢٥/ ٣/ ١٩٨٩

وقت للجفاف .. ووقت للمطر

فى العيادة الخارجية يأتى المرضى والذباب أولا .. ثم يأتى الموت متأخراً بعض الشئ .. هكذا تبدأ خطواتى كل صباح ، أقف متردداً أمام الباب ويدى فى جيب المعطف الأبيض تعبث بالسماعة . سماعة صينى رخيصة تبدو دقات القلب من خلالها أشبه بالنباح . أرى صفوف المرضى الجالسين فوق المقاعد وعلى الأرض . أشم رائحتهم مختلطة برائحة الحبوب العطنة ، وعندما تستدير رؤوسهم نحوى يباغتنى ذلك البريق الذى أراه فجأة فى كل العيون .. لماذا تبدو عيون المرضى بهذا الاتساع .. كأنهم جميعا يحدقون فى فراغ لا نهائى ؟

بين الباب الخارجى وغرفة الكشف تمتد طرقة مروعة على أن أعبرها . لأن الأجساد الواهنة والأنفاس الثقيلة تحملنى ذنبا لا أدرى سببه . لعلها مساحات جلودهم الصفراء التى تنبض خلفها عروق ضعيفة وأعصاب نصف مشلولة . لعله حلم قديم ذاب ومضى ولم يبق منه سوى بعض المرارة . أسير بينهم دون أن أراهم . عبر خليط من الشكوى والتأوهات وتمتمات العزاء . قال أحدهم فجأة :

– يا دكتور لو سمحت ..

لم أسمعه . لو التفت إليه لانهار هذا الجدار الهش من اللامبالاة .

اقتربت من باب غرفة الكشف . التمرجية العجوز تلكز جموع النسوة وتسبهن . ابتسمت لى ابتسامة صغيرة لا يلحظها سواى وأخذت تدفعهن حتى تفسح لى منفذا ..

– صباح الخير يا دكتور على ..

غرفة الكشف . المنضدة الخضراء فى الوسط . ثلاث تلميذات من مدرسة التمريض . سعدية الحكيمة الصامتة دائما تخرج الأدوات من «الأوتوكلاف» الصغير .. دون أن أشعر سألت :

– أين ريم .. ؟

ظلت سعدية صامتة . قالت إحدى التلميذات فى خبث أبله :

– لم تأت ..

– غائبة .. ؟

– لا أدرى ..

تحسست صف التذاكر . كانت كثيرة .

– قالت البنت :

– هل نبدأ أم ننتظر حتى ..

ناولتها التذاكر فوقفت بجانب الباب وأخذت تنادى الأسماء بصوت مرتفع .

نسوة فقيرات سريعات العطب . الأولى تشكو من ورم . والثانية من نزيف . والثالثة من انقلاب فى الرحم . يمسكن التذاكر ويرمقن الآلات فى حذر . وعندما تكشف كل واحدة منهن عن الجزء السفلى من جسدها

حيث تلقت أول لمسات المتعة وأنجبت أخر أطفال الموت يبدو واضحا أثر سنوات الضنك وقلة الحيلة ، حتى أننى أردد مفجوعا دون صوت . ناثنج أوت توبى دن ، لا شئ يمكن عمله . ناثنج أوت توبى دن . ضاعت الفرصة وفات أوان العلاج . عادة مصرية مأثورة . يأتون وهم يحملون الموت على أكتافهم .

اتذكر أن ريم لم تأت بعد وأننى فى حاجة لابتسامة تحمل العزاء لى . تكاثفت أنفاس النسوة وتحولت غرفة الكشف إلى مصيدة خانقة . تأوهت امرأة وأنا أدخل المنظار قالت : والنبى يا بيه . ضحكت .

كان أبى رجلا بسيطا وبلدتى صغيرة وعلى طول الطريق إليها نزعوا علامات الأميال واستبدلوا بها صلبانا رصاصية صغيرة . ماتت جذور السنديان ولم تعد الأشجار قادرة على الرحيل . أصبحت غريبا فى مدينة واسعة متباعدة . احسست بالاختناق ، وضعت يدى فى محلول «الديكول» وجلست مجهدا .. وقالت ريم : صباح الخير يا دكتور «كانت تلهث» .. قلت لها لماذا تأخرت ؟ قالت : مرت بى ليلة عصيبة ..

وحل سكون مؤقت . بدأت سعدية تحاصرنا بنظراتها . والتلميذات ينزوين فى أحد الأركان ويتضاحكن .. هززت يدى فتناثر رذاذ المطهر وناولتنى ريم إحدى المناشف وهى تبتسم بطريقة دفعت الابتسام إلى وجهى . قلت هامسا :

– دائما لا تبدين كحكيمة ..

– لماذا ؟ ..

– لا أدرى .. ربما بسبب اسمك .

– ربما لأننى وحيدة أكثر مما ينبغى ..

كانت أكبر سنا مني . مثل الشمس والبحر . ولكن ابتسامتها كانت تتألق فى طفولة نادرة . قالت التلميذة فى إلحاح :

– هل أنادى الأسماء ..

– أجل ..

دخلت امرأة فى منتصف العمر . قروية . وجهها أبيض مستدير وجسدها ممتلئ يبدو عليه أثر الراحة جلست على طرف منضدة الكشف .. سألتها :

– ماذا بك ؟ ..

– لا شئ .. العادة انقطعت منذ ثلاثة شهور ..

لم يكن يبدو عليها أى أعراض غير عادية . امرأة تبدو عليها علامات الراحة . أخيرا طلبت منها أن تستلقى فوق المنضدة . قالت بتردد مفاجئ :

– الأمر ليس كما تظن .

– أنا لم أظن شيئاً بعد ..

نظرت المرأة نحو ريم كأنها تستغيث بها .. ثم اندفعت فى الكلام :

– زوجى مسافر منذ ثلاث سنوات ونصف .. أولادى كبار .. عندى بنت على وشك الزواج ..

– هذا لا يمنع أن تستلقى ..

رغم القفاز الذى أرتديه أحسست بتقلص عضلات المهبل وهى تحاول الإنكار . ذكرت اسم بلدتها واسم زوجها وأولادها . وحافة الرحم صلبة .

ليس هناك مجال للشك . تحسست البطن المتكور والحلمة البارزة والخطوط البيضاء الممتدة بطول البطن .

- انت حامل ..

فتحت فمها بدهشة مبالغ فيها .. قالت بصوت أجوف :

- كيف .. ؟

شعرت بالضيق من وجهها الأبيض وهيئتها المرتاحة .. قلت ساخراً .

- ثلاث سنوات ونصف مدة طويلة ...

همست ريم : لا تكن قاسيا ..

قالت المرأة : أولادى كبار .. كيف يمكن ..

- هناك الوسائل البلدية .. سوف تجدين فى البلد عندكم من يعرفها جيداً .. (وادركت أننى مازلت قاسيا) تستطيعين القدوم للمستشفى عندما يأتى الميعاد والمستشفى يقوم بتسليم الطفل إلى أحد الملاجئ ..

كانت مصرة على إبداء هذه الدهشة السخيفة .. قالت :

- لعل الحمل كان «راكن» طوال هذه المدة ...

لو أنها تصرفت بشكل أخر لكان لها عذرها . كنت ممتعضا . نظرت ريم إلىّ كأنها ترانى للمرة الأولى . كتبت للمرأة بعضا من أقراص الفيتامينات وأشرت لها بالانصراف : قالت ريم :

- لا يستطيع الرجل أن يغفر بسهولة ..

قلت ضاحكا : أنا أكره عدم الحرص ..

– لعلها نسيت هذه المرة ..

– بعد خبرة ثلاث سنوات ونصف ..

لم تقاوم هى أيضا الضحك ..

– أنت لا تطاق ..

دخل أحد التمرجية .. قال ..

– المدير يطلب مقابلة سيادتك .

– أنا .. ؟!!

– نعم قال لى الدكتور على نجيب ..

نظرت لريم فى استغراب . لم أكن قد قابلت المدير إلا فى حفلات الشاى . وبدا لى مثل كل المديرين على قدر من البلاهة والغرور .. كان على أن انتهى من العيادة أولا .. وتوقعت أن يدرك هو ذلك دون حاجة للشرح .. غسلت يدى . لم يعد الهدوء إلا بعد انسحاب آخر فلول المرضى. لم يبق إلا زحامهم أمام نوافذ الأدوية . وأيديهم الممتدة تحمل الزجاجات الفارغة لتحصل على المزيج المجفف لكل الأمراض والحبوب القليلة الفاعلية .

قلت لريم : إننى عائد إلى المستشفى . تبادلت التحية مع بعض الزملاء . واجتزت وحدى طريقا مختصرا عبر حديقة جرداء مشبعة بالموت . والعشب ينمو بين قطع القطن والشاش الملوث . وتتشعب غصونه الجهنمية حول نوافذ غرفة العمليات وتنبثق من بين نفايات المرضى زهور غريبة الألوان مثلما تنبت فى المشرحة أولى براعم الحب ،ومع درس التشريح الأول نتلقى لمسة العشق الأولى . وبجوار جثة مفتوحة البطن

نتبادل تأكيد الميعاد الأول . هكذا تستيقظ « هدى» فى داخلى مثل نافورة من الشوق الحزين .

عندما أصعد إلى الأدوار العليا أرى المدينة هادئة . والبحر ديناصور وديعا بالغ الزرقة . وأتمنى ألا أتوقف أبداً عن الصعود ولكن الحيتان والنوارس الغافية تستيقظ فجأة وترفع الطوابى القديمة راياتها . ويتناثر زبد أفراس البحر فوق الأسفلت . بقايا آمال ضائعة ، وزهور من الملح . وأباطرة منفيون يتسولون فى ظلام الأزقة . وملكات هيلينات عيونهن واسعة . وجلودهن ناعمة من أثر الاستحمام فى لبن الحمير .

فى وحشة المساء يحاصرنى ذلك الصهيل وتنطفئ المنارات وتنسحب هدى .. آخر ضوء غارب من الشمس ، وفى مواجهة باب المستشفى وسط زحام الزيارات والبائعين وتجار المرض ، كانت المرأة القروية تقف فى مواجهتى وهى تهتف :

- ساعدنى يا دكتور .. ستر على ..

نظرت إليها فى دهشة .. أنت ..

- أجل إستر عرضى .. أولادى كبار .. وزوجى سوف يعود .. ولو عدت إلى البلد وأنا فى هذه الحالة سوف يعرفون ..

- ألا توجد عندكم داية .. حلاق صحة .. تصرفى ..

- سوف يقتلوننى ..

- وتريدين أن أتولى أنا عنهم مهمة القتل ..

تركتها . حاولت اللحاق بى فى إلحاح . أصبحت فى الداخل ابتعد عن صوتها وهى تتوسل للبواب حتى يسمح لها بالدخول . وعندما التفت

رأيت وجهها محشورا بين حديد السور وهو يلمع بالدموع ..

طرقة المستشفى مزدحمة دائما . أطباء الامتياز والأحلام الناصعة كلون المعطف . والممرضات اللاتى يضحكن بلا سبب . يحملن عينات الدم والبول والبراز كأنهن يحملن زهوراً يانعة . المرضى الذين لا ينتمون لقسم معين ويعانون من كل الأمراض . تتشابك الطرقات وتتكاثف رائحة المرض المميزة . توقظ داخلى إحساسا غريبا . أشبه بالجوع النهم إلى الجنس . ذات مرة سوف أتخلص من خجلى وأسأل ريم عن السبب . وسوف تكون من الرقة بحيث لا تغضب ومن البراءة بحيث تمنحنى تلك اللحظة الصافية من الشبع ..

جلست وحيداً .. كان هذا ميعاد «المرور» ، وصوت الدكتور صفوت رئيس القسم صاخبا .. يلقى كلمات السباب والأوامر على الجميع .. جلست هادئا .. وتأملت البحر البعيد .. كان حبى لهدى هو حلم مستحيل أيضا كشطآن هذا البحر .. كانت مخلوقة رقيقة خيل لى أنها يمكن أن تخدش إذ تمس وحين حكيت لها عن أحلامى كانت عيونها تمتلئ بفرحة حزينة .

– حلم آخر من أحلام اليقظة ...

كانت ريم واقفة أمامى .. لعلها تبعتنى عبر طرقات المستشفى . تأملت عينيها فى صمت . فى منتصف النهار يكون لونها مثل البن المحروق . وفى الصباح تكون رمادية .. ترى ماذا يكون لونهما فى آخر اليوم .. قلت لها :

– أتأمل البحر .. أحلم بالسفر ..

هزت كتفها وجلست أمامى وهى تقول :

- أنا لا أحب السفر .. إنه ملئ بالوداع .. وأنا كرهت الوداعات الكثيرة..

- ألا تحلمين برؤية مكان معين ؟..

صمتت قليلا ثم أدارت وجهها حتى لا أرى عينيها ..

- بالطبع أريد أن أرى غرفتك ..

تعالت ضجة فى الخارج . رف طائر غريب فوق الحديقة . أفزعته قطع القطن الملوثة فطار فى الفضاء . دخلت إحدى الممرضات . تناولت بعض صور الأشعة وعرضتها للضوء . أطل التمرجى من الباب وقال فى إلحاح أن المدير يطلبنى . اندفع الدكتور صفوت يحيط به رتل الأطباء الصغار والممرضات . عبر باب الغرفة دون أن يرانى . التصقت ريم بالجدار . دخلت الغرفة حكيمة مرعوبة . قالت الدكتور صفوت سأل عنك لم أكن أدرى أننى أصبحت بهذه الأهمية . ظلت ريم واقفة فى الركن .. قالت فى صوت خافت :

- هل فوجئت ..

هززت راسى وأنا أقول :

- كنت أفكر كيف أشرح لك الطريق إلى مسكنى ..

- قال التمرجى : أن المدير مازال يطلبك ..

- هل قلت حقا أم أننى كنت أحلم ..

- عليك أن تسرع بالذهاب ..

- ونحن ؟ ..

- سوف نجد طريقة ..

لمست يدها بسرعة فابتسمت . كان الدكتور صفوت واقفا يهدر أمام غرفته . حين رآنى صمت تماما واستدار نحوى وهو يقول بدهشة مصطنعة .

- أنت هنا ..

كنت أكرهه .، وكانت مشاعره نحوى مزيجا من الخوف والعداء الصريح .. قال ببلادة :

- المدير ..

بدأت أحس بالقلق . تأملته قليلا لأعرف إن كانت له يد خفية فى الأمر أم لا .. قلت بلا مبالاة :

- إننى ذاهب الآن ..

ريم بعيدة . والعيون المستكينة تحاصرنى . سوف يكون مضحكا أن يطلب الدكتور صفوت طبق الماء المعقم ويغسل يده وسط الجميع ويصيح فى جلال أسطورى أنه برئ من دمى الدنس . سرت صامتا . قال الفراش:

- سوف أستأذن البيه المدير ...

رمقتنى السكرتيرة بنظرة سريعة وبدت خائفة . دست وجهها فى الورق حتى أننى تساءلت عما يحدث . ودخلت الغرفة الواسعة المسدلة الستائر . المدير كان يبدو ضئيلا خلف مكتبه الفخم . كان هناك شخص آخر جالسا على المقعد أمام المكتب . سلم المدير على بانحناءة خفيفة بينما انتصب الرجل الآخر وأخذ يصافحنى بحرارة .. أهلا .. أهلا .. كانت

صلعته صغيرة مضحكة ويده لزجة . تطلعت إلى المدير الذى بدا قلقا هو الآخر .. قال :

– بعثت إليك منذ فترة ..

– العيادة الخارجية .. كنت وحدى ..

غرقنا فى الصمت . حاول الرجل الآخر أن يبتسم فى وجهى . ظل المدير منكبا وهو يعبث بالفتاحة . كان يريد منى أن أبدأ بالسؤال ، ولكنى أدرت رأسى وأخذت فى تأمل الإطارات الذهبية فوق الحائط . قال الرجل الغريب فجأة :

– الموضوع بسيط ...

قال المدير أيضا على الفور : الموضوع بسيط . نهض واقفا وألقى بالفتاحة على المكتب .

– هذا السيد يريد الحديث معك . النقيب أمين زغلول من مباحث أمن الدولة ..

استدار خارجا من خلف المكتب واتجه إلى الباب فى خطوات سريعة وقال قبل أن يخرج :

– سوف أتيح لكم فرصة للحديث .. آمل أن يكون الموضوع بسيطاً .

أغلق الباب فى عصبية . أخذ الوجه الأصلع يتطلع إلى فى قحة .. أوشكت على النهوض والاعتذار عن الكلام معه ، مد يده بعلبة سجائر فقلت أننى لا أدخن بطريقة لا تخلو من الحدة .

– ما الموضوع البسيط .

أشعل سيجارته فى هدوء . أدركت أننى أصبحت عصبيا .. ولعل هذا

ما كان يريده .. قال فى بطء :

- دكتور على نجيب ٢٨ سنة .. من مواليد ..

- هل كنت تعرفنى ..

- شخصيا لا .. ولكننا كنا نعرف اسمك جيداً منذ أن كنت طالبا ..

- ما الموضوع بالضبط .. ؟

- كن صبوراً . هذا اللقاء فى المقام الأول مجرد تعارف .. ولنقل إنه تعارف مصحوب باستفهام محدد ..

- من حقى أن أرفض الإجابة على الأسئلة التى لا تعجبنى ..

- أنت تضخم الأمور . ليس هذا تحقيقاً . ولو كان الأمر يستاهل لاستدعيناك إلى المكتب .. أنت .. أنت لست من هذه المدينة .. هه .. لم تذهب إلى بلدتك إلا عام ٧١ عندما كنت تحاول الاختباء ..

- لم أكن أعرف أن هناك أمراً بالقبض على ..

- ليس لك فيها أصدقاء ..

- لم يعد لى أصدقاء ..

- أمر يؤسف له . وأنت طالب كنت فى غاية من النشاط .. كنت القاسم المشترك فى مجلات الحائط ودوريات الجامعة الشهرية وأحيانا التظاهرات ، وحتى بعد أن تخرجت اشتركت فى أول مؤتمر سياسى تعقده الكلية .. هذا النشاط يعد غير ذى خطر بالنسبة لما يحدث هذه الأيام ..

تنهد الرجل بحرقة حقيقية وهو يضيف :

- جيل هذه الأيام على قدر كبير من العناد سواء كانوا يساراً أو يميناً.

هتفت محتداً :

- لم يعد لى نشاط سياسى ..

قال الرجل وهو يرمقنى بنظرة باردة :

- سوف تقول لى أيضا أنك لم تحاول الاتصال بدولة أجنبية ...

- كلا ..

- ولا منظمات مشبوهة ..

- لا أفهم ماذا تعنى .

- ألم أقل لك .. ها أنت ذا ترفض التعاون معنا .. ألم تكن فى بيروت؟..

- أهذه هى الدولة الأجنبية ؟ ..

- وكنت عضواً فى إحدى الجبهات المتطرفة .

- كنت طبيبا وحسب .

- أترى .. الاتصال بالمنظمات مسألة خطرة .. أليس كذلك ..؟

- خطرة بالنسبة لمن ..

سكت الرجل وارتسمت على وجهه ابتسامة غاية فى الغموض :

- أحيانا ينعكس التطرف على الحياة العادية .. مثلا .. هذه الخلافات المستمرة بينك وبين زملائك فى العمل ..

- من تقصد ؟

- لا أريد التدخل فى حياتك الشخصية .. ولكن بعد أن خرجت من

السجن يقال إنك تلقيت صدمة عاطفية قاسية إلى حد ما .

– لا دخل لهذا بموضوعنا ..

– هذا هو رأيى الشخصى .. ولكن الدكتور صفوت لا يرى ذلك ..

– الدكتور صفوت رئيسى فى العمل .. وليس محللى النفسى ..

– لنبحث إذن عن أسباب اتصالك بهذه الجبهات المتطرفة .

– لأننى واقع فى غرام ليلى خالد ..

– « ليلى خالد» يسارية أيضا مثلها مثل بقية عناصر الجبهة المتطرفة .. التطرف شئ ضار جداً ..

– وبالنسبة لى كطبيب فالتطرف هو أن أؤدى عملى بطريقة جيدة ..

– من الذى أشار عليك بالتطوع فى هذه الجبهة بالذات .. هل توجد هنا عناصر داخلية تجمع الناس ..

– هذه مهنتك أنت .. ولا أريد أن أقوم بالعمل نيابة عنك ..

– ها أنت ذا ترفض التعاون مرة أخرى .. عموماً إننا لا نريد أن نقفز إلى الاستنتاج ولكن التقارير تقول أنه من الممكن أن تكون أنت إحدى حلقات الاتصال بين اليساريين فى مصر .. وبين اليساريين خارج مصر .

– هذا محض تخيل .. ولو كان لديك دليل واحد لا أعتقد أنك كنت ستقوم بهذا الحوار الودى ..

– حياتك حافلة يا دكتور بالأدلة .. مشاغبات طلابية .. تظاهرات .. سجن الاستئناف .. ثم سجن القلعة .. عندما قبض عليك ألم تكن فى بيتك مجموعة كتب لينين الكاملة ..

– إنها تباع فى المكتبات بشكل علنى ولا يوجد قانون يحرم شراءها ..

– بالطبع ولكننا نعتبرها أدلة فى حالة إلقاء القبض .. أرجوك لا تهون من الأمر حتى التقارير التى نتلقاها من داخل القسم تقول إنك تنشر أفكاراً شاذة ..

– هل يقدم لك الدكتور صفوت بنفسه هذه التقارير ..

– أوه .. لا يوجد أثر للخلافات الشخصية هنا .. كون أن الدكتور صفوت تزوج الفتاة التى كنت تحبها وأنت طالب لا يجعله مشاركا فى أى شئ .. إن لنا مصادرنا الخفية .. ولكن هذا يجب أن يعلمك أن تكون أكثرحرصا .. لقد مات أبوك أثناء الدراسة .. لم يترك لك شيئاً يذكر .. ثم ماتت أمك .. ترى كيف كنت تدبر أمورك المالية ؟ ..

– كنت آخذ مكافآت تفوق .. ومازلت مدينا لبنك الطلبة ..

– أمر خيالى أن أقول لك أنك كنت تتلقى أموالاً من مصادر أخرى ..

– مثل بقية الأمور الخيالية الأخرى ..

– أحسدك على هدوئك .. كانت الدكتورة هدى تعرف حالتك المالية بالطبع ..

– أرجو أن تكف عن ذكرها ..

– آسف لم أكن أعرف أن الذكرى مازالت مؤلمة .. أحيانا يبدو ما نقوله ثقيلا حتى أن البعض يظن أننا أعداؤهم . إن مهمتنا الحقيقية ....

– أعتقد أنى أعرف مهمتكم الحقيقية مثلما تعرفون أنتم عنى كل هذه الأشياء ..

– فقط كنت أسأل .. هل نستطيع أن نكون أصدقاء ؟ ..

– لا وقت لدى ..

– سوف تجد الكثير من الوقت .. خاصة أنك لن تستطيع العودة إلى بيروت مرة أخرى ..

– هل أنا ممنوع من السفر ..

– كلا .. إنها ليست أسبابا شخصية .. مجرد أمور تتعلق بالأمن ..

– أمن من ... ؟ ..

كان لا يزال يتكلم عندما غادرت الغرفة . صفقت الباب فتطلعت السكرتيرة نحوى بذعر .. تحسست وجهى فإذا هو غارق في العرق . بدت درجات السلم بلا نهاية . كنت أهبط كأننى أغوص إلى قاع بئر آسن وحل ورطوبة وديدان شرهة . بقايا شهب هاوية وسط أكوام الحشائش الملطخة بالدم والمطهرات .

قالت حكيمة لم أتبين وجهها : سلامتك يا دكتور وضحكت أخرى بصوت عال .. حاسب على نفسك .. كنت أخذ أنفاسى بصعوبة .. وتوجهت مسرعا إلى غرفة الدكتور صفوت قالت الحكيمة :

– الدكتور صفوت مشغول ولا يريد أن يعطله أحد ..

شعرت بالارتياح لأنه لم ينصرف بعد . أزحتها من طريقى ودخلت إليه وهو جالس خلف مكتبه . رفع رأسه فى حركة سريعة فتبينت مقدار فزعه .. قال بصوت حاول أن يكون صارماً :

– ماذا تريد .. أنا مشغول ..

قلت بصوت عال :

– هذا ما يدهشنى دائما مشغول . القسم . العيادة . المستشفيات

الخاصة . أين تجد الوقت الكافي لكتابة التقارير ؟

– ماذا تقصد .. أنت مريض بلا شك ..

– اجل مريض .. وعندى حمى مرتفعة .. لا وقت عندى لكتابة تقارير المباحث .. ولا لسرقة فتيات الآخرين . لذلك لا أكف عن الصراخ والاحتجاج .. يحسب البعض هذا تطرفاً .. ويخطئ الجميع امراض الحمى الواضحة .

– انت تنسى نفسك .. لن أسمح .. ولن ..

– كف عن هذا اللغو يا دكتور .. اهدأ واكتب تقريراً جديداً .. قل كل شئ . لعلك تجد تبريراً لنفسك ، تخيل افزع أنواع الجزاءات .. ولكن هذا لن ينقص من مقدار حقارتك الحقيقية ..

واستدرت خارجاً . كانت تحيط بالباب وجوه مفزوعة ، لم أر ريم وسطهم . كنت أتخبط وفى حاجة ماسة لنسمة من الهواء النقى . كانوا يحاولون الإمساك بى وتهدئتى وربما إرغامى على الاعتذار . اجتزت الطرقات وأنا أشهق . توقفت المرضات وفى أيديهن عينات البول والبراز، توقفت النقالات عليها مرضى الحالات المستعصية كأن الطرقات بلا نهاية .. وكأنه لا توجد شمس ...

وصلت أخيراً إلى غرفتى .. عبر الطرقات المتداخلة والشوارع المزدحمة بالناس والسيارات وجدت بعضا من الهدوء المحايد . أثاث صامت . مياه باردة . وسماء بعيدة باهتة . وجهى المنفعل فى المرآة مثير للضحك .. رنت ضحكتى كأنها أصداء استغاثة .. لم أبك بعد .. لم أسقط تحت وطأة الحصار . جلست أمام النافذة ورأيت السحب تتجمع فوق المدينة وأسطح المنازل وهى تنحدر مع انحدار الأرض نحو البحر . رأيت البحر البعيد

الساجى . وهبت الريح المشبعة باليود .. وتخيلت للحظة أننى لست فى حاجة إلى أحد .. لا إلى ذكرى قديمة .. ولا للمسة حانية .. و لا لكلمة حب .. وإننى يمكن أن أكون هكذا وحيداً ..

كنت نائما أحلم بالعصافير التى تقاوم الموت برداً .. كنت أحس بالريح الباردة كأنها قادمة من أقبية القلعة السرية .. سمعت طرقا على الباب الخارجى .. تداخل الحلم مع اليقظة لبرهة وجيزة .. تواصل الطرق الخارجى .. سرت حتى الباب وقال صوت من خلال العتمة :

– مساء الخير ..

بدا وجهها محمراً ولاهثا من أثر صعود الدرج . امسكت بأطراف أصابعها الباردة وأنا أخشى أن تذوب فى يدى ويتبدد الوهم .. قالت وهى تدخل :

– ياله من استقبال حار .. ألا يكفى أنك تسكن فى هذا المكان المرتفع ..

بلعت ريقى .. كنت أحاول أن أتأكد أننى عبرت الحلم .. قلت :

– كيف جئت ..؟

– الأمر بسيط .. عرفت عنوانك من داخل القسم .. وجئت ..

خلصت أصابعها من بين أصابعى برفق .. سارت حتى أغلقت النافذة :

– الآن .. لنر الغرفة .. كنت أخشى ألا تكون موجوداً ..

غمرنا الضوء وأنا أتأملها بانبهار . ثوبها خليط من الألوان وليس له لون محدد .. تعودت زيها الأبيض حتى أننى ظللت عاجزاً عن استيعاب شكلها الجديد .. قلت فجأة .. ريم .. ريم .. كيف يمكن .. قالت :

– لم تكن تريدنى أن آتى ... ؟

- كـان يجب ان تأتى .. انت لا تعـرفين مـاذا كـان يمكن أن يحـدث لـو لـم اجد احداً بجانبى ..

دارت نصف دورة . تطلعت لـلجدران والسـتـائر . مـرت بإصـبعـهـا على صف الكتب الموجـودة فى أحـد الأركـان . لوت شـفـتـيـها فى حـركـة وقـورة وهـى تقول :

- شقة لا بأس بها بالنسبة لطبيب حديث التخرج ..

- لم أتخيل أننى سأراك ثانية .. لـم أكن أنوى العودة إلى المستشفى ..

- هل كـتبت اسـتـقالتك . كـان أبى متـخـصـصـا فى كـتابة الاسـتقـالات . استقال أكثر من خمس عشرة مرة واحتفظ بها فى درج مكتبه ..

- صعدت كل هـذه الدرجات كى تسـخرى منى ..

ألقت بحقيبتها وارتمت فوق أحد المقاعد . فردت ذراعيها وهـى تهتف :

- أليس هناك ما يؤكل .. أو يشرب .. أى شئ نضيع الوقت فيه ..

قلت ضاحكا :

- كنت أحسبها زيارة ودية .. إننى حتى الآن لم أتناول غدائى ..

- على أن أحتمل أكلات العزاب الباردة الجافة ..

- عندى جبنة وبيض ونصف علبة من «البلوبيف» أمـا بقـيـة المأكولات فهى فى المطعم المجاور .

- هـذا يكفى .. إن فـرصـتى مـحدودة .. ولكـننى سـوف أحـاول أن أظهـر كل فنون الطبخ فى قرص البيض ..

أحسـسـت أن المطبخ ضيق وأن الأرفف وصـنابيـر المياه تحاصـرنا . أخذت

أشير لها على أماكن وجود الأشياء الضرورية ثم هتفت في تبرم :

-- لم تأت إلى للطبخ بلا شك ..

رفعت أصابعها محذرة :

-- أ .. أ .. غلطة . المرأة .. تفعل كل شئ بنفس الدرجة من الأهمية .. ويمكنك القول انه من حسن حظى أننى لم أجد ثيابك متسخة .. والآن .. أنصرف ..

فتحت النافذة فرأيت الفنارات البعيدة تضيئ أنوارها والسفن العابرة ترسل لها إشارات التحية . والمدينة تتألق مثل عقد من الخرز . كنت أحس برائحتها تملأ المكان .. أوشك أن ألمسها . كانت تقول تعليقا ضاحكا . أو تسألنى عن مكان الفلفل الأسود . كل شئ فى غرفتى كان ينتفض بالحياة . حتى أن خلايا حسرتى القديمة تتآكل وتبدد الذكرى .. كل الذكريات قديمة .. ومضحكة ..

لم اعد أسمع صوتها ... أسرعت إلى المطبخ .. وجدتها مستندة إلى الحائط محنية الرأس ... هتفت :

-- ماذا حدث ؟ ..

رفعت ذقنها بين أطراف أصابعى . رأيت وجهها المبلل بالدموع .. قلت مهدئا :

-- ليس المطبخ مكاناً مناسباً للبكاء ..

قالت كلمات لم أفهمها وارتمت فوق صدرى فأخذت أمسح دموعها بشفتى ..

-- الآن قولى لى لماذا تبكين قبل أن يحترق البيض ..

أعدت تسريح شعرها بأصابعي . حملت الطاسة بعيداً عن النار ..
قالت :

- يبدو أنها ستمطر ..

- يبدو ذلك ..

لوحت بيدها ..

- هكذا كلما أمطرت أحسست بالرغبة فى البكاء ..

- فقط ..!

- فقط ...

أكلت فى شهية ولم تأكل هى إلا قليلا . عاودها المرح وقصت على وهى تغالب ضحكاتها كيف ظل الدكتور صفوت يصيح كأن فى داخله ناراً مشتعلة . وكيف أحس الجميع بنوع خفى من الشماتة . حملنا الأطباق معا وضعناها فى الحوض دون غسيل . شربنا شايا وجلسنا متجاورين . ثنت ساقيها تحتها فأحطت كتفيها بذراعى وقبلت جبينها وشعرها ..

قالت.. لو لم أجدك كنت سأقضى ليلة مروعة . نثرت شعرها بين أصابعى فتألقت خصلاته . قلت .. من يصدق أنها المرة الأولى التى نكون فيها وحدنا معاً . شفتاها رقيقتان . بهما شقوق قليلة لم يستطع الطلاء إخفاءها . حين احتويتهما بين شفتى كانتا دافئتين وصلبتين . ارتفع صوت المطر كأنه لهاث حيوان مطارد . نهضت واقفة وتلقت على وجهها أول القطرات . وقفت بجانبها وأحسست بدفء جسدها المرتعد .. مطر أزرق يملأ كل الأنهار ويجلو كل الشموس الصدئة . رذاذ نجوم لا نهائية لا يخفت بريقها .

كان الهواء مليئا بالنشوة . أخذتها بين ذراعى وأخذت أدور بيدى على ظهرها .. قبلتها بين عينيها قائلا : انظرى ، ذات لحظة مثل هذه خلق الله العالم . إنها أكثر اللحظات ملائمة للخلق .. مطر .. وحفنة من تراب .. ولمسة من الحب .. هذه هى الحقائق الوحيدة المؤكدة .. قالت : تذكر أننى أكبر منك سناً .. أنت أكثر حياة وتدفقا . كأنك نوع جديد من الجذور يربطنى بالأرض التى أحبها . قالت : لقد خفت منك هذا الصباح .. لم أتخيل أن فى داخلك كل هذا الغضب .. هل يعنى هذا أن فى داخلك كل هذا العشق .. قبلت عنقها ومفرق نهديها فهمست محذرة سوف تتلف ثوبى. ولم تكن الأريكة مريحة .. وكانت ملاءات السرير متسخة فشعرت بالخجل .

قالت : حتى على السرير توجد كتب . أخذت أفك أزرار ثوبها بعناية .. قالت : هذا رائع .. لقد مللت فك أزرارى بنفسى حتى الموت . بدأ نهداها مستديرين كأن لم يمسسها قط . ووضعت رأسى بينهما وحلمت بقوس قزح أحمر كالرعد . أخضر كالبحر . أزرق كالمطر . ينساب عبر شوارع المدينة فيصلها بالرمل .. ويصل الرمل بالبحر . بالزبد المتوهج . وينشق الزبد فترفع أفراس البحر أعرافها وتصهل فتهتز عروق المدينة . ينزع المجوس أقنعتهم وينفضون غبار السفر الطويل ويلقون هداياهم فى عرض الشارع فتكون من نصيب الصيادين الفقراء وأولاد البحر الذين اختطفتهم العواصف .

تضمنى ريم إلى صدرها أكثر فأحتنضنها بعنف حتى أسمع صوت انضغاط ضلوعها .. كانت الشهوة تجتاح المدينة مع زخات المطر . كأننى لم أجرب جسد امرأة بكل هذا الصدق وهذه الصراحة والقدرة على العطاء . كانت تنتفض بين ذراعى فتمنحنى القدرة على التجدد والبعث .

جسدها الأبيض النحيف يغوص فى ضلوعى . رحلة عكسية . رغبة فى الالتئام .. تتداخل السيقان والأذرع فوق الملاءات المتسخة .. على الكتب المتربة .. على بقايا ثيابنا معا .. تقول لى : أنت ما تزال بحاجة لاكتشاف المرأة فى لحظة المتعة لا فى لحظة المرض كما تعودت دائما .. تقود جسدى كله فلا أستطيع أن أفرق بين الجسدين .. لأى منا ينتمى هذا اللحم الساخن المرتعد من الرغبة . رأيت على بطنها شامة غريبة بطنها بيضاء والشامة بنية فاتحة . كانت نقطة كبيرة فى الوسط تحيط بها نقاط صغيرة متناثرة كأنها شمس صغيرة :

قالت ريم : كانت أمى تقول أن هذه آثار أصابع أحد الجن الذين يسكنون تحت الأرض ولابد أنه وقع فى غرامى وأنا صغيرة .. قلت فى صوت هادر: أيتها الخائنة كم جنيا عشقت قبلى ؟! عضت أذنى بأسنانها . أمسكت رأسها الصغير بين يدى وأخذت أطوف بشفتى فوق وجهها . كنت أعبر لها عن امتنانى . كان جسدها مسترخيا فوق صدرى . جزيرة مرجانية صغيرة .. ملاذ صغير لبحار ضائع . قال لى أحد البحارة العجائز .. لابد أن هناك مقبرة لأفراس النهر .. لقد شاهدت فى عرض البحر مقبرة للحيتان . كانت المياه تندفع منها فى نافورات عالية .. فلماذا لا تكون هناك مقبرة لأفراس النهر ؟ .. كان ثملا بعد أن شرب نصف ما فى الحانة من خمر .. وكنت أنا ثملا من عبق جسدها الذى يملأ أنفى .

خطر لى فجأة خاطر غريب .. أنا والدكتور صفوت أننا نتشارك دائما فى نفس المرأة .. هل تسرى هذه القاعدة الآن .. على ريم .. قلت لها فجأة هل حاول معك الدكتور صفوت .. أدخلت أصابعها فى شعرى .. قالت .. يا حبيبى الرجال دائما يحاولون .. قلت فى لهفة .. وهل رفضت ؟ .. قالت بالطبع ولكن باحتراس شديد كما يليق برئيس قسم محترم ..

فكرت فى نفسى .. سوف اكون سعيداً عندما أعلم انه يخون هدى .. وسوف أكون اكثر تعاسة إذا كانت ريم واحدة منهن .

قالت :.. لماذا تشرد بعيداً .. لم أطلب منك اى التزام .. هل فعلت ؟ قلت .. كلا .. وهبتنى لحظة عشق نادرة دون مقابل .. لا شئ يمكن أن يساويها .. نهضت واقفا .. تطلعت من خصاص النافذة فرأيت المطر يغمر كل شئ .. وقفت بجانبى رأيت جسدها الناصع الأبيض المشدود الملئ بالوعود المستسلم دون أى ابتذال، الراغب دون إشارة كأنه خلق لتوه. حملتها بين ذراعى وعدنا إلى الفراش قلت لها مهددا : لن نكف حتى يكف المطر .. قالت : كيف تظاهرت بالخجل طوال هذه المدة .. قلت لها : أفضل أنا مارس الحب وأنا واقع فى الحب فعلا .. قالت وهى تحضنني .. وأنا أيضا .. أقع فى الحب وأنا أمارس الحب ..

وضعت طرف الغطاء على صدرها وقالت :

– سوف اتأخر .. لم أتوقع أن نستغرق كل هذا الوقت ..

– سأوصلك إن كنت تخافين الظلام ..

– ألا تخشى أن يراك أحدهم معى ..

– سأطوف بك حول المستشفى سبع مرات ..

تشبثت بى فجأة وهى تقول :

– لو رحلت هل تأخذنى معك .. ؟

– هل تودين الهرب معى .. ؟

– لا تهرب .. أرجوك ..

تشبثت بعنقى اكثر وعاودت البكاء فبدا هذا غريبا .. قلت .. أتبكين

لأنها تمطر ..؟ قالت ... أبكى لأننا التقينا بعد فوات الأوان .. قلت .. ولكننا التقينا على أى حال .. وها انت ذى تضيعين الوقت فى البكاء .. قالت : أشعر بالبرد .. تبدد دفء الرغبة فجأة . تدثرنا بالغطاء . أخذتها فى حضنى ولثمت شعرها . قالت فجأة :

- هذه المرأة ..!..

- أى امرأة ..

- التى جاءت إلى العيادة فى الصباح وكانت حاملا دون أن تعرف .. لقد قابلتها مرة ثانية ..

- أنا أيضا قابلتها .

- كانت خائفة لدرجة الموت .. جلست على الرصيف وهى تلطم خديها وتضع التراب على رأسها .. لن تستطيع العودة إلى بلدتها مرة أخرى ..

- إنها ليست صغيرة ..

- هذه هى المشكلة .. لها بنت على وشك الزواج ماذا يحدث عندما يعلم الجميع بفضيحتها ..

- أنت تفسدين هذه اللحظة علينا يا ريم .. هذا ليس ذنبنا ..

- قالت إنها تفضل الموت على رصيف المستشفى .. أو فى الشارع ..

- إنها ليست وحدها .. معها شريك فى الأمر .. سوف يجد لها حلاً .. هذا الشئ لم يعد نادراً .. ولم تعد مشكلة تستحق الرثاء ..

أجهشت فجأة بالبكاء وقالت من خلال شهقاتها :

- أنت لا تفهم .. هذه المرأة هى أنا ..

لم اكن افهم اى شئ يستدعى كل هذا الحزن .. أحاطت عنقى بذراعيها واخذت تتكلم .. تختلط نبراتها بهذيان المطر ودمدمات البحر الغاضبة .. لم تكن تلتقط انفاسها .. كأنها لم تتحدث من قبل . وظللت أستمع إليها صامتا .. أريد أن أملك القدرة على أن أطيب خاطرها .. أو اقبلها .. أو اقول لها اى كلمة :

– فى هذا الصباح .. قلت لك إننى وحيدة أكثر مما ينبغى .. وفى المساء ظللت أعانى خجلا مريراً حتى جئت إليك . هذا الشتاء اشد من أن أستطيع أن أحتمله وحدى .. لم أعد أحتمل وليس لى إلا نفسى .. ولا رفيق لى سواى .. منذ أن دوت صفارات الحرب وأظلمت المصابيع وظهر الطلاء الأزرق فى النوافذ وأنا وحدى . ست سنوات مرت دون أن أجرؤ على الحلم به مرة واحدة .. وذات ليلة قررت أن أراه .. أخرجته من بين أحشائى .. وأغمضت عينى فكان رفيقا بى وجاء . كان الحلم واضحا مرتباً كأنه حقيقة .. طفل صغير .. عمره ست سنوات كاملة . يفتح حقيبته المدرسية فتتساقط منها القواقع البحرية والرمل الأصفر .

ست سنوات وأنا أستيقظ لأبكى فى الصباح والمستشفى حولى تمتلئ بالحوامل والمجهضات يبحثن عن الستر وظل الحلم حتى حفظت ملامحه واخذت اتطلع لوجوه كل الأطفال واثقة إننى يوما ما سوف أجده بينهم . وذات ليلة سرت إلى بيت المرأة العجوز على أطراف الملاحات . كان هناك منحدر . ومياه ناشفة .. وعروق الملح ذائبة فى التراب ينطبع عليها قدمى واحس بها وهى تنكسر مع كل خطوة أخطوها .

مرة واحدة جئت فيها إلى هذا البيت من قبل ولم أنسها من يومها .. لم تعرفنى المرأة العجوز فى أول الأمر .. ثم أنكرتنى حين عرفتنى .. قلت

لها اننى فقط أريد أن أعرف مكان قبره .. وعندما عرفت أن هذا فقط كل ما اريده أخذت تضحك .. صرخت فى وجهى .. الموتى ماتوا منذ زمن لا جدوى من نبش القبور القديمة . طلبت منها فى إصرار .. أن تدلنى عليه .. وساومتنى .. اخذت كل ما معى من نقود وسارت معى إلى أسفل المنحدر .. عبر حارات ضيقة .. وممرات هشة من الملح المختلط بالطين .. ولم تكف لحظة واحدة عن السخرية منى .. ما الذى جعلك تتذكرين .. هل تودين الإنجاب من جديد ؟ ..

وعندما رويت لها الحلم الذى يطاردنى زادت من سخريتها .. لم أرد عليها .. لأن سنوات الحرب كانت باردة وقاسية وبطيئة .. قبلها كان كل شئ يسير فى سرعة وتوتر حتى أننى تزوجت دون أن أشعر وعندما أفقت بعد ثلاثة أيام كنت وحيدة وكان هو قد ذهب بعد أن انتهت أجازته الميدانية .. لم يكن أمامى إلا انتظار الرسائل .. كان هذا هو طعم الزواج فى زمن الحرب .. لا حب .. لا إحساس بالنشوة .. محاولة يائسة لدفع خطر الموت المتربص .. كنت أحتفظ بصورته معلقة أمامى دائما حتى لا تبهت ملامحه فى ذاكرتى . ولكنها ظلت تبهت والطائرات تئز . والليالى تمر دون لمحة من أمل . وارتفع بطنى هكذا بلا حب ولا نشوة . وظل بطنى نواصل الارتفاع حتى جاء الخطاب المحدد ذو الكلمات الباترة . يتحدث عن البطولة والتضحية . يتحدث عن الموت .

سرت صامتة بجانب العجوز . كنت قد أوصيتها أن تدفنه بجوار البحر ولكنها انفجرت فى الضحك مرة أخرى .. ماذا تظنينه . إنه مجرد قطعة من اللحم الملوثة بالدم .. عندما أخذت قرارى لحظتها لم اكن أشعر بأى ذرة من الندم .. قلت ذلك لأمى فشهقت ودقت صدرها .. حدثتنى عن الحب .. الأمومة .. ثم قالت بتوضيح اكثر أن هذا سوف يزيد من نصيبى

فى المعاش .. وكم كانت تساوى سنواتى الضائعة .. أرملة إلى الأبد .. تنتظر الفرصة التى قد لا تأتى أبداً . أم دون ذرة من الحب ..

سرت إلى البيت برفقة إحدى زميلاتى التى أقسمت على كتمان السر . وظللت أتلوى من ألم غير عادى . وأختنق برائحة المكان الكريهة وأرى أصابع المرأة العجوز وهى ملوثة بالدم .. دمه هو .. كانت تضحك وتحذرنى من الوقوع مرة أخرى فى أخطاء من هذا النوع . أمسكت النقود وأحصتها من مرة فلوثها الدم أيضا وعندما خرجت من عندها وصعدت فوق المنحدر كنت أشبه بثوب ممزق لا سبيل إلى إصلاحه ..

طال الطريق وأحسست بالتعب والقهر فصرخت فيها .. أنت تضلليننى. قالت .. الأمر كله لا يستاهل .. أصبحت البيوت خلف ظهرنا وبدأنا السير فى منحدر ضيق تحيط به النباتات البرية الجارحة ثم أشارت بإصبعها المعقوف إلى الأمام .. قالت : هذا هو المكان . شهقت فى خيبة أمل . لم يكن أمامى إلا مساحة واسعة ممتلئة بأكوام القمامة وكل أنواع المخلفات .. وهب الهواء فأحسست بالغثيان ..

كانت تلال القمامة بلا نهاية بعضها لازال يحترق يتصاعد منه دخان بالغ السواد والكلاب تدور .. تلغ فى القمامة .. هتفت .. أهذا هو المكان .. قالت .. هذا هو مكانى المفضل .. كل الذين خلصتهم حفظت سرهم هنا.. وبرزت أمامى امرأة قذرة فجأة ترتدى السواد فصرخت فى فزع .. ثم أخذن يبرزن من خلال تلال القمامة .. كل واحدة منهن تمسك جوالاً قديما وهى تواصل النبش .. بكيت .. هل ألقيت ابنى فى هذا المكان .. هتفت فى استهانة .. لم يكن إلا قطعة من اللحم المشوهة ..

أمسكت شعرها وجذبتها فى عنف .. صرخت المرأة وانشبت أظافرها

فى وجهى .. انحدرنا فوق التل وأحسست بطعم القمامة فى فمى .. وقفت النسوة يرقبننا فى سرور .. كنت مغلوبة ولكن المرأة العجوز كانت أقوى منى .. انهالت على بالضربات والنسوة يتصايحن .. إمتلأ وجهى بالجروح .. وافلتت منى مثلما أفلت كل شئ .. وظللن يتأملنني قليلا ثم تركتنى وواصلن النبش فى هدوء .. وانسحبت وحدى ..

توقف المطر . ارتدينا ثيابنا فى صمت . هبطنا السلم المظلم . خرجنا إلى الشارع المظلم . وضعت معطفى على كتفها ولكن يديها المرتعدتين لم تستطيعا إمساكه . ظلت تسير بخطوات متكسرة كأنها تخشى السقوط . وضعت المعطف على كتفينا معاً ولففت يدى حول وسطها وأخذت أسندها طوال السير قالت :

- هل تكرهني ؟ ..

- كلا ..

- هل تستطيع أن أتى لزيارتك مرة أخرى ؟ ..

- المرة القادمة ستكون أفضل بلا شك ..

- إذا رحلت .. هل تأخذنى معك ؟ ..

- أجل ..

وظلت ترتجف ، وعندما مررنا تحت أحد المصابيح رايت وجهها المبلل بالدموع مثل إحدى الأيقونات القديمة ، كانت المدينة مبلولة . والأبنية اليونانية استعادت بعضا من بهائها . كانت الريح تحمل دمدمات الموج . سألتها إن كنا سنمضى سائرين أم نحاول أن نركب أى شئ . قالت إنها تفضل ركوب الدور الثانى من الترام حتى تصبح قريبة من قمم الأشجار

بحيث ترى تشابك الغصون وأعشاش الطيور .. أخذنا نتحدث من جديد.. نستعيد جزءاً من دفء لحظات المتعة .. وكان القمر يطل من فوقنا متألقا كأنه هو أيضا قد اغتسل بالماء .. وقالت ريم :

– هل تعرف طعم القمر ..

– كلا .. هل يشبه الثلج الدافئ المحلى بالسكر ..

– يشبه لحظة من لحظات الحب .. اللحظة الأخيرة على ما أعتقد ..

واصلنا السير وأنا أضم المعطف من حولنا . عبر الطريق ترام سريع بأضوائه الصفراء وبعثت الضجة فينا بعضا من المؤانسة . سرنا طويلا ولم يكن لدينا أى رغبة فى الافتراق ولكن ريم قالت أخيراً :

– هذا هو المستشفى مازال مضاء لعل الدكتور صفوت مازال مشتعلا بالغضب .. !

– هل تفكرين فى زيارته .. ؟

قالت وهى تضحك :

– لا داعى لأن ننهى هذه الليلة نهاية محزنة .. سوف أعبر قضيب الترام إلى الناحية الأخرى وبعدها أستطيع الانصراف وحدى ..

– لا أعتقد أننى أستطيع أن أتركك .. ما رأيك أن تعودى معى مرة أخرى ..

كان أمامنا جمع من الناس .. وأصوات عالية .. رغم الرذاذ المتساقط كانت هناك وجوه تتجمع ، تركت المعطف فوق كتفى ريم وسرت إليهم .. سألت أحدهم :

– ماذا حدث .. ؟ ..

– حادثة .. امرأة ..

كنت كمن رأى المشهد قبل ذلك عشرات المرات وأصبحت أحفظ كل تفاصيله . سرت ببطء حتى رأيت جثتها ترقد بعيداً قليلاً عن القضبان . كانت حولها بركة صغيرة ممتلئة بالماء .. وجهها ناصع البياض وخيوط الدم داكنة السواد .. عيناها مفتوحتان . تنظران إلى كأنهما تسألاننى عن مخرج للخلاص وشفتاها مزمومتان كأنهما يائستان من الإجابة . صدرها مهشم وبطنها مرتفع قليلاً ويدها قابضة على شئ لم أتبينه .. قلت :

– هل دهسها الترام ..

قال واحد من الواقفين :

– الله أعلم .. كانت مذهولة .. يقولون أنها ألقت بنفسها .. الله أعلم على كل حال .. كانت ريم مازالت تقف بعيدة ملتفة بالمعطف وقد غاصت برأسها . وضعت يدى على كتفها .. وسرنا مبتعدين . تطلعت نحوى وقد تبدد الابتسام من على وجهها .. قلت على الفور :

– إنها هى ..

تمتمت فى ذهول .. هى ..

أجل .. لم أكن أتصور أنها يائسة إلى هذا الحد ..

واصلت التمتمة بنفس الذهول .. هى .. دائما هى ..

وانحدر بنا الشارع نحو البحر . واشتدت الريح وبدت قمم الأمواج الهائلة وهى ترتطم بالشاطئ الصخرى فى جنون .. أخذت أحاول أن أفكر.. كيف فعلت ذلك .. هل كان الأمر مؤلما .. ؟ كانت ريم تعبة فجلسنا فوق مقعد حجرى مبلل .. وكان البحر يمتد هائلا عميق الغور . كل مرة

تنشق كتلتة السوداء عن موجه قادمة قمتها بيضاء ما تلبث أن تستطيل بعرض الشاطئ حتى تتبدد . ولم تكن ريم تبكى ولكن يدها كانت باردة مثل الموتى .. مالت فوق كتفى وقالت ببطء .

- إن لم أمت الليلة فسوف أعيش طويلاً ..

وظل البحر يفور بالزبد .. وكنت أسمع من خلال فورته صهيل أفراس البحر .. ولكن أعرافها لم تظهر بعد ..

١٩٧٦

آدم من طين

لحظة كالحلم ، كانبعاث اليقظة من موات الليل ، الأرض تتنفس ، والنهر ينشق ، والنجوم تغور ، وأدم يرتعد من برودة الوحدة وثقل الصمت ، خلايا الطين تنقسم أمام عينيه ، تتمطي بجسدها الرخو علي سطح المياه ، فرك عينيه ثم خطا خارجا من « الخص» الذي كان جالسا فيه، في لحظة مثل هذه خلق الله العالم ونفخ فيه الروح ، تقدم حتي حافة النهر ثم جثا بركبتيه وقبض علي الحشائش البرية الجارحة يحاول التشبث بها ، كان تحته تراب ندي يغوص فيه ، وحوله ذرات من ظلام كثيف تجعل كل شئ غائم الرؤية وغير مستحيل التحقيق ، ولكنه كان موقنا من أنه يري كل شئ .

المياه تواصل الانحسار ، والطين يعيد تشكيل نفسه ، النهر الساكن دوما ، الغائض خوفا ، أصبح فجأة يموج بحياة غريبة ، تخرج من قاعه المظلم أجساد مضيئة ، تتقافز في انتشار أخير ، أسماك تحتضر أم شذرات من نجوم ؟! .. السحب تتقاذفها الريح الباردة والنهر يواصل ولادته ، الطين يولد من رحم الماء ، والموج ينتفض من آلام الوضع الداخلي فيتقلص في دوامات مجنونة ، ومن خلال الصمت تتخلق عشرات الأصوات ، التئام ذرات الطين في حفيف غامض ، انتزاع جذور الطحالب ،

انفصال الأصداف، رعدة الأسماك المفزوعة ، تقلص القاع ، ازورار ورد النيل ، ثم يبرز الجسد الطيني ، يحتل مكانه فوق سطح النهر ، تحت شحوب النجوم ، كأنه حوت ضخم ضل طريقه إلي مياه النهر العذبة ، وقاوم الشيخوخة والانقراض ، واختبأ في القاع طويلاً ، ثم عن له أن يتمطي قليلا تحت ضوء القمر البارد .

نهض أدم واقترب أكثر ، خاض بقدميه في الماء ، كان يريد أن يتأكد ولكنها كانت ، بعيدة عن متناول يديه ، هتف من أعماق روحه الجائعة :

- إنها لي وحدي ، بشارتي ، ليست لأحد سواي .

في هذا الصباح كان هو والنهر سواء ، لم يعط النهر شيئا ، ولم يملك هو شيئاً ، حتي «غزالة» لم يظفر منها إلا بلمسة من أطراف الأصابع ، ووعد غامض مؤجل ، وأمنية مستحيلة مادام كلاهما معدماً لا يملك شيئا من فتات الأرض ، ولكن لحظة الخليقة هذه بدلت كل شئ ، هدأت فورة النهر ، وهجعت الأرض ، وبقيت الجزيرة ساجية ، تتألق في وهن تحت ضوء القمر ، حية ، موجودة ، وأدم يخوض المياه إليها ، يحس بالرطوبة وهي تنتشر مع أنسجة جلبابه ثم تنفذ إلي جسده ، هتف في إصرار :

- إنها لي ، أنا الشاهد الوحيد علي ظهورها وكلهم نيام كالبهائم . تري هل يمكن أن تستيقظ غزالة وتشاركه رؤية هذا الحلم ؟ ..

إنها الآن ملكه وحده ، ولكن لو جاء الصباح فسوف تكون ملكهم جميعا ، فى هذا الوقت الذى هجع فيه حتى الجن شاءت الجزيرة ان تتجلى له ، هو الذى عاش طويلا دون أن يمتلك ذرة من الطين ، فراشه من البوص وسعف النخل ، وطعامه هو بقايا طعام السادة الذين

يستاجرونه من « آل مرسى » وحتى « غزالة» كانت معدمة مثله تعيش مع أبيها العجوز الذى لايموت ولايحيا فى « خص» آخر على حافة النجع ، كان يسعى إليها ليواصل أبوها طرده ، لم يكن يملك مايقدمه لها سوى المزيد من الفقر ، لم يجرؤ هو وهى على أن يحلما معا حلما واحدا ، ولكنه الآن يقف على حافة هذا الحلم والبرودة التى تخترق عظامه تدعوه أن يفيق وأن يفعل شيئاً .

الرغبات الحميمة لاتقبل الانقسام ، وأصوات الذئاب ترتفع من بعيد ، تجوس طرقات النجع الضيقة وسط البيوت الخائفة والناس المرتعدين ، كان عليه أن يكف هو أيضا عن رعدته ويذهب إليها ويتاكد من ملمسها ، خرج من النهر وعاد إلى الخص ، جمع حاجاته الملقاة على الأرض ، جلباب وحيد وطبق وفأس ومنجل وعصا غليظة ، ضم كل هذه الأشياء ، وضعها داخل الجلباب ثم ربطها على ذراع الفأس ووضعها على كتفه ثم عاد سريعا قبل أن يسبقه أحد إليها وقبل أن يسترد النهر عطيته .

ظل يخوض فى الماء حتى وصل إلى عنقه واختفت الأرض من تحت قدميه ، أمسك الفأس بذراع وواصل السباحة بالذراع الأخرى ، كان الماء العكر يملأ فمه رغما عنه ، وذرات الطين تتراكم على لسانه ، يحس بمذاقها المالح .

استيقظت جنادب الليل وأخذت تستحثه ، وهاجرت الطيور أعشاشها وحامت حول الجزيرة فى دورات مفزوعة وظلت الذئاب تعوى والجزيرة تضوى والماء يوهن قواه ، تقطعت انفاسه ومازالت المسافة بعيدة بينه وبينها ، بعيدة بينه وبين الشاطئ ، تصلبت الذراع القابضة على الفأس فأخذ يضرب الماء بالذراع الآخرى فى جنون ، يستجمع كل طاقة الحياة

الباقية فى جسده يهتف فى صوت عال :

- لن أغرق .. لن أموت ..

لطم الماء فلطمه الماء ، دفعته موجة مجنونة حتى أحس بالطين ، لا فى فمه فقط ولكنه يحتوى جسده أيضا ، مد ذراعه وحاول أن يتشبث بأى شئ ، طين رخو ، اقتلع فى قبضته بعضا من الجزيرة وأوشكت الدوامات أن تدفعه بعيدا مرة أخرى ، دفع جسده حتى يدخل الطين اكثر ، يلتحم به ، يصيران معا جسدا واحدا كبيرا لا يقدر النهر على ابتلاعه ، ضرب الطين بذراعه وغاص بصدره أكثر حتى أحس بشئ من الأمان ، الآن الطين هو الذى يحتضنه ويبعده عن غائلة النهر .

حاول أن يعلو فوق الجسد الرخو ، ظلت قدماه تغوصان فى الطين ، كلما حاول أن ينتزعها تثاقلتا ، اكتشف بعد عدة محاولات - انه غير قادر على الوقوف ، الجزيرة مازالت تحمل فى جوفها رخاوة القاع ، فى حاجة إلى لمسة من الشمس حتى تهب لها بعضا من التماسك والصلادة ، هو أيضا كان فى حاجة ماسة إلى لمسة من الشمس ، سوف يبقى هكذا مستلقيا على ظهره غائصا فى الطين ، منتظرا أن ينشق الليل ، خائفا مما يأتى به النهار ، متشوقا أن تعلم غزالة وأن تاتى إليه وأن يقتنع أبوها أخيرا انه يملك مايؤهله للزواج منها ، شيئا ينقذها من بيع جسدها بلا ثمن لكل ذئاب النجع الذين لايكفون عن الحومان حولها .

كيف سيراه الجميع وقد قضى عمره لايملك الا أجر عرقه اليومى الضئيل ، كيف سينظر اليه أسياده من « آل المرسى» وهو رابض فوق هذه الجزيرة الصغيرة من الطين الخصب ؟

ظل مستلقيا على ظهره ، والسماء بعيدة ، والنجوم قليلة ، قال لها :

يا غـزالة أهربى مـعى ، قـالت : أرض الله ضـيـقـة وأبى لايـكف عن الموت ، وجـاء شبـاب النجع فى ثيـابهم البيـضـاء ، فـوق ظهـور حمـيرهـم البـيـضـاء ، طافوا حـول الخص ، صاحـوا ولوحوا بنقودهـم ثم مـضـوا ، وأخـفت غزالة وجهها وبكت فى صمت ... هل يمكن أن ينتزعها من وسطهم ويقيم عالمه هنا فى مواجـهتهم ؟ عليه أولا أن يحـاول حتى لاينتزعـه أحد من هـذا المكان حتى لو تجمد من البرد فسوف يكون هـذا الطين كفنه .

تواصلت لحظات البـرد والظلام ، لـم يدر إن كان جـسده مـازال طافـيا أم انه يواصل الغـوص فى الطين ، هل هـو نائم أم أن هـذا خـدر الموت ؟ .. لـولا عواء الذئاب على الشاطئ الآخر لاعتـقد أنه انتقل إلى عالم آخر ، الذئاب هى التى كـانت تحـمـل له نوعـا من المؤانسة وتربطه بـعـالـم البـشـر ، حـاول أن ينهض جـالسـا فـلـم يسـتطع ، ظل راقـدا وكل مـايتـمـناه ان يتـواصل عـواء الذئاب حتى تخف ظلمة الليل وتبدأ انفاس الصباح .

لـم تـخـذله الذئاب ، وعندمـا فـتح عـينيـه فى لمحة خـاطفـة رأى النهـار وهـو يشق الظلمة اخيرا ، يقظة رمادية شاحـبة ، حاول أن يتحـرك ولكن أعضاءه المغطاة بالـطين كـانت مـتـصلبـة لـدرجـة تثـيـر الألـم ، ولكن هـذا الألم جـعله يشـعـر انه مـايزال حـيـا وعليـه أن يناضل كـى يتـمـسك بأخـر أهداب هـذه الحـياة، ازاح الطين من على صـدره ثـم انتـزع نفـسـه وجلس ، صـاح مـتـألما ودوت صرخته عبر النهـر وردد الأفق صداها ، بدأ الضـباب الخفيف يزحف من الشـاطئ ، ضـبـاب تخلـق من ندى الليل وأنفـاس الصـبـاح ، ينـتظر هـو أيضا الشمس حتى يتبدد .

اسـتطاع أن يقف دون أن يصـرخ ، نفض الطين من جلبـابه ، ومن على ساقـيه ، كـان فى حاجـة إلى المزيد من الحـركـة حتى تنتـشـر الحيـاة فى كل

أعضـائه ، بدأ يسير ، يكتشف أركـان عالمه الجديد ، أرضـه البكر ، آثار القاع مازالت موجودة عليها ، طحالب نضـرة ، اصداف خالية ، بقايا عظام دقيقة بيضـاء ، أسـمـاك مـتـحـجـرة ، بقـايا غـرقى ، كل ذاكـرة النهـر ، الغـضب والصـفاء ، الحياة والموت .

كـان الضبـاب يمنحه هو وجـزيرته آخر فـرصة للاخـتـفـاء عن الأعين ، اكـتـشـف ان جلبـابه المثـقل بالـطين يعـوق حـركـتـه ويـزيد من إحـسـاسـه بالبرودة ، خلـعه ، أحس انه يستطيع أن يلـتقط انفاسـه بسـهـولة ، اتجه إلى حافـة الجزيرة وغمس الجلبـاب فى الماء وأخذ يزيح ما عليـه من طين ، كان حـريصـا على جـمع كل الذرات المتـسـاقطة حـتى لاتضـيع فى النـهـر مـرة آخرى ، كل ذرة هـى ملكه وعليه أن يحافظ عليها .

بدأت أولى الأصـوات قـبل أن تشـرق الشـمس ويتـبـدد الضـبـاب ، صـوت ضـربات مـجداف فـوق سطح النهر ، بدأت زوارق المياه رحلتها الصـباحـية ، ترك الجلباب بسـرعة واخذ يجرى إلـى المكان الذى وضع فيه حاجـاته ، كان مكان نومـه واضـحـا ، حـفـرة بحـجم جـسـده ، تناول العـصـا الغليظة وعـاد يجـرى مرة أخـرى إلى حافـة الجـزيرة ، أصـبح الصـوت واضـحـا ، ظهـر من بين الضـبـاب قـارب صـغـيـر ، ورأى آدم «مـغـاورى» الصـيـاد وهـو يواصل التجديف ، يقترب من مركز النهر دون أن يدرى أن الجـزيرة أمامه .

توقف عن التجـديف عندما رآها ، نهض واقفا فـوق القارب وهـو يحاول ان يحافظ على توازنه ، فـتح فمه فى دهشـة وهـو يتتبع الحافـة الطينية ، ثم ارتفـعت عـينـاه مع جـسـد آدم العـارى إلا من سـرواله وهـو يقـف مـغطى بالطين كـأنه قطعة من الأرض ، حـدق فـيـه دون أن يتـعـرف عليـه ، وفـجـاة سمع الكتلة الطينية تصرخ فيه :

- ابتعد ..

اهتز القارب ، وسقط مغاورى جالسا فى مكانه .. ثم تعرف عليه وهتف :

- ولد ياآدم .. ماذا حدث ؟ ..

لكن آدم عاد يصرخ فيه بوحشية :

- قلت لك ابتعد والا أغرقتك أنت والقارب ..

استرد مغاورى بعضا من الهدوء ، كان قاربه بعيدا عن متناول التهديدات ،عاد يتساءل :

- متى ظهرت هذه الجزيرة ؟

هز آدم عصاه الغليظة :

- إنها جزيرتى ، أرضى ، لم يقترب منها أحد ، والآن ابتعد .

قال مغاورى فى استهانة :

- والله عال يابن ..

وقبل أن يكمل فوجئ بآدم وهو يقفز فى الماء متجها نحوه والعصا الغليظة مرفوعة فى يده وفى عينيه نظرة متحفزة ، أحس مغاورى بالخوف فجاة ، أمسك بالمجداف وأخذ يضرب الماء مبتعدا ، توقف آدم وهو مازال يرفع العصا ، وظل القارب يلهث حتى وصل إلى الشاطئ ، هبط مغاورى مذعورا وأخذ يعدو ناحية النجع وقد تخلى عن صيده الصباحى .

عاد آدم إلى الجزيرة ، سار عاريا يبحث عن الدفء وينتظر شروق الشمس ، استيقظت الطيور وأخذت هى ايضا تتامل الجزيرة فى

استغراب ، بدات السماء تتلون أخيراً ، أخذ النهر الوان الحياة ، وبدأ جسده يرتجف تحت أولى الأشعة محاولا أن يطرد برودة الليل ، ثم سمع همهماتهم وهم يجتازون الطرقات والحقول ويعبرون الجسور قادمين إليه ، حفيف غامض ، خليط من أصوات الدهشة والاستنكار ، رفع رأسه فرآهم جميعاً واقفين على الشاطئ .

الآن يشاهدونه جميعاً ، كلهم جاءوا اليه وهو الذى يمر دائما من أمامهم وتحت انوفهم دون أن يروه ، لم يعبا احد منهم أبدا برؤيته ، الآن وقف امامهم عاريا ، فى يده عصا وتحت قدميه جزيرة ، جميعهم غرباء عنه ، لاشئ يربطه معهم ، حدق فى صفوفهم لعله يلمح «غزالة» دون جدوى ، لم يعد ينتمى إلا لهذا الطين الذى يقف عليه .

حين سقط من رحم أمه إلى أرض الله القاحلة تلوثت مؤخرته بروث «الزريبة» التى ولد فيها ، حدقت فيه الحيوانات بعيونها الواسعة وهى تجتر طعامها ، كانت ليلة باردة ، وثمة نار واهنة تحت إناء الماء الذى يغلى ، كتمت الام صرخاتها حتى لا تؤذى اسماع السادة من آل المرسى الذين يتسامرون فى فناء الدار ، ظلت تنزف والدم يتسرب وسط اكوام التبن والعلف والروث فيزيد من قتامته ، قالت امرأة عجوز :

– خسارتك فى العار ياشابة ، الموت افضل لك .

واكتشفت أن خلاص الطفل لم يقطع بعد فنزعته بلا هوادة وألقت الطفل فى مزود قريب ثم نسيته تقريبا ، كان الظلام قد قطع كل طرقات النجع والبرد قارس ، وظلت النسوة «الكلافات» اللاتى يداومن رعاية الزرائب يواصلن وضع السفاح والرماد فى رحمها لعل سيل الدم يتوقف قليلا ، دون جدوى .. سألوها مراراً : من هو أبوه ؟ .. فلم تجرؤ على

الإجابة ، ثم كف جسدها عن الارتجاف عند الفجر ، صمتت تماما وغمرتها البرودة ، وظل هو أيضا صامتا كأنما كان خائفا من أن يكتشفوا وجوده ، لم يستيقظ إلا حين لحست جاموسة وجهه بلسانها العريض الخشن ، دبت قوى الحياة البرية داخل جسده الصغير فبدأ يصرخ ، يعلن عن تواجده ورغبته فى مواصلة الحياة ، لم يعطه أحد لبنا ، اعطوه فقط بضعة أعواد من البرسيم فأخذ يمتصها فى شراهة ، ثم واصل حياته معتمدا على بقايا كل شئ ، انتزع حياته من بين أيديهم الشحيحة انتزاعا ، مثلما انتزع قطعة الأرض التى يقف عليها الآن فى مواجهتهم .

الآن يلوحون له بالقبضات ، يطلبون منه العودة إلى الشاطئ لايرى وجوههم بوضوح ولكنه يحس بنظراتهم الشرهة ، انتبه إلى أن هناك ثلاثة قوارب تحاول الاقتراب من الجزيرة ، ارتفعت أصوات الرجال والنساء من فوق الشاطئ فى هدير متصل ، تستحثهم على مواصلة التقدم ، البلدة كلها تصرخ ، وصرير أسنان الرجال الذين يضربون الموج يرتفع عاليا .

أحس آدم بالذعر وهم يحاصرونه من كل ناحية ، جرى فوق الجزيرة وهو يصرخ مثل حيوان غاضب ، لم يكن لديه مايخسره ، لذلك لم يفكر فى الاستسلام ، كل واحد منهم يخشى على حياته ، وهو لايخشى على شئ ، هذه القطعة من الأرض هى حياته ، إذا ضاعت ضاع .

أمسك بالفأس واتجه ناحية أقرب القوارب من الجزيرة وقف على أقصى طرفها الذى يكاد يختفى فى الماء ، تردد الرجال الذين فى القارب قليلا وتوقفوا عن التجديف ، ولكن الهدير على الشاطئ دفعهم للحركة مرة أخرى ، بدت مقدمة القارب مثل سكين يوشك أن يخترق بطنه ، رفع

الفاس وهـوى عليها ، سـمع صوت ارتطام الـفأس ، رآهـم وهـم يهـتزون فى رعب ويصْرخون فى غضب .

– سوف تغرقنا يابن الكلب ..

وزمجرت الحشود على الشاطئ فرفع الفأس وأهوى عليه مرة أخرى ، تدافعوا كالفئران إلى أحد جوانب القارب ،مال بهم فاندفعوا إلى الجانب الآخر ، رفع الفـأس للمرة الثالثة ولكنهم كـانوا يتراجعون ، الـتفت إلى الناحية الثانية فوجد القاربين الآخرين مجمدين فوق الماء ، أدركوا أن قلبه ميت ، يقف على الشعرة الفاصلة بين الحياة والموت ، استدار ولحق بالقارب الأول ، خيم الصمت على الشاطئ ، ووقف هو ، خلع السروال المبتل الذى يغطى عورته واخذ يقوم أمامهم بحركات مكشوفة ، سمع شهقات الخجل الكاذب ، واللعنات والشتائم ، عادت القوارب وبدأ الجميع يتراجعون مذعورين أمام العورة العارية .

الآن رأوه جيدا .. ولن ينسوه بعد ذلك ، منذ أن تركوه فى الزريبة ينمو مع الحيوانات لم يشعر بوجوده أحد حتى أهل البيت ، امراة «كلافة» هى التى اكتشفت وجوده ، ذكر أدمى نشأ وسط الحيوانات فأخذ لونها ورائحتها ، ربما كانت هى التى أطلقت عليه اسم آدم ، اكتشفت عورته قبل أن تكتشف اى شئ فيه ، هتفت :

– كل هذا وانت فى هذه السن .. ؟!

كان جسده نحيلا ، مغطى بالروث والتبن والقش ، فأخذت تزيح كل هذا من عليه وتغسله بالماء لعلها تعيد تكوينه ، ثم بدأت ايقاعات النشوة تعبق جو الزريبة التى لاتضيئها سوى الذبالات الواهنة ، قالت :

- انت لاتعرف كيف تتحدث .. عليك على الأقل ان تتعلم شيئا مفيدا

كانت امراة ضخمة ، حين خلعت ثوبها بدا جسدها ناصع البياض ، متالقاً وسط العتمة ، اتسعت عيون الحيوانات وتمددت أعضاؤها ، احتوته المراة ، لم تكن تريد أن يكتشف أحد وجوده سواها ، كان القش طريا فأقامت به حاجزا يحجبها عن المدخل ، قالت :

- كانت امك صديقتى ولابد انها نذرتك لى .

واعطته نهدها . كانت هذه هى المرة الأولى التى يتلقف فيها نهدا ، والتى يعرف فيه فمه شيئا بمثل هذه النعومة ، ظل يزمجر فوق صدرها فى أصوات غريبة فضحكت وهى تقول :

- انت لست حيوانا .. تصرف كالآدميين ..

وقادته برفق حتى ادخلته فى عالمها الدافئ.

من هذه اللحظة بدأ يشم رائحة الحيوانات ويشم رائحة نفسه . ويشم رائحة غيره من البشر ، كان الشاطئ خاليا ، والكون خالياً ، وحين صعد إلى جسد هذه المراة أحس انه أول رجل ولد فى الدنيا ، وان كل شئ متأهب فى انتظاره ، تعلم بسرعة ، حفظ الأسماء وسر دفء الشمس ومسار النهر وأوان تفتق البذور ، ومواقيت الأفلاك ،وكان جسدها منبع هذه الأسرار ، ولكنها كانت تريد منه ثمنا قاسيا ، ان تبقيه فى ظلمة الزرائب إلى الأبد ، وان يكون شاهدهما الوحيد هو هذه الحيوانات ، ولم يعد هذا فى مقدوره ، كان يسعى إلى ضوء العالم الحقيقى ورائحته الحقيقية.

انطلق من فوقها إلى طرقات النجع ومياه النهر واستحم وجفف

جسده وكشف عن لون جلده وأعلن مولده وبرغم ذلك لم يره احد . كل مافعلوه انهم ابعدوه لأقصى مايمكن عن بيوتهم ونسائهم ، أجير يعيش وسط الاجراء ، ينام فى الخص النائى ويحلم بغزالة دون أن يتمكن من نوالها ، ترك المرأة وامتزج جسده بالأرض ، كانت تسكن روحه كل اسرار الزراعة لذا فقد دخل فى دورات البذر والجمع والحصاد دون غربة .

جلس منهكا ، لم يرتد ملابسه ولم يحس بأى نصر ، برغم ذهابهم فقد أحس انه مازال محاصرا ، لا يستطيع ان يترك الجزيرة ، ولايستطيع الذهاب إلى غزالة ، أحس فجأة بالجوع ، لاشئ يؤكل على هذه الجزيرة الخصبة القاحلة ، لابد انهم يراقبونه الآن من خلف احراش الشاطئ ينتظرون اللحظة التى يزحف فيها إليهم متوسلا .

مازال فى نفس المازق القديم ، وحيداً ومنبوذاً ، ربما تحولت الجزيرة إلى مقبرة لو انهم شددوا قبضة الحصار قليلا ، الطيور تحوم حوله فى بطء ، لو انها تهبط ربما استطاع ان يمسك بواحدة منها ، أو ان مركبا يمر الآن فيعطيه بعضا من الطعام ، بدأ يرتعد برغم حرارة الشمس ، ارتدى جلبابه واخفى عورته وتماسك الطين تحته قليلا ولكنه كان قد فقد طاقته على الحركة ، ود لو ينتهى كل شئ فجاة كما بدا ، وان تغوص الجزيرة ويختفى الحلم ويعود إلى الخص كما بدأ .

عند الظهيرة انتصب واقفا ، كان هناك من يقف على الشاطئ ، تعرف عليهم بسهولة ، عمدة النجع شخصيا ، جسده الضخم الذى يشبه جذع نخلة مبتورة وبجواره اثنان من الخفر يحملان البنادق ، وقفوا كالتماثيل ينتظرون نهوضه على قدميه ، رأى الخفيرين وهما يسحبان الحزام الجلدى المعلق فيه البنادق ، شعر بالخوف ، هل يمكن أن يعبر الرصاص

كل هذه المسافة ؟ .. ماذا ينوى العمدة بالضبط . فكر ان يرتمى على الأرض ولكنه لم يكن يريد لأحد ان يعرف مدى الخوف الذى يحس به ولا الجوع الذى يعانى منه ، ظل الصمت مخيما لبرهة ثم سمع صوت العمدة عاليا واضحا ومهددا :

– ولد يابن الكلب ، يا مجهول النسب والأصل ، هذه أرض الحكومة ، تعال هنا حالا .

لم يتحرك ، ظل ممسكا بالعصا فى مواجهة البنادق ، هنا ، فى مثل هذا النجع النائى لاوجود لشئ اسمه الحكومة ، العمدة هو الذى يهدد فقط كى يسلبه جزيرته ، يلقى الكلمات بصوت قوى حازم كى يخيفه ، ظل آدم صامتا دون ان يدرى ماذا يفعل بالضبط ؟ ... عاد العمدة يصيح :

– سوف ياتى العسكر من « النقطة» ويسحقونك تماما ، افلت بجلدك ، اقفز فى الماء ولن يؤذيك أحد .

ظل صامتا ، رفع الخفيران البنادق لدرجة الاستعداد ، سمع «تكة» ترباس الأمان وهو يرفع ، صاح العمدة وقد وضع كل قوته فى صوته :

– اقفز ياحمار ..

كيف يترك مصدر قوته الوحيدة ؟ . اشار العمدة فأطلقا رصاصتين ، دوى صوتهما المزعج على سطح الماء لم يدر هل اجتازتاه أم سقطتا فى النهر قبل ان تصلا إليه ؟ .. أدرك ان العمدة يريد هذه الأرض بشدة فظل واقفا حتى يجعله يفهم انه حتى الرصاص غير قادر على اقتلاعه ، ورفع العمدة قبضته مهددا :

– سأقتلك من الجوع اذن ياكافر ، لن تغادر هذه الجزيرة ولو اقتربت

قدماك من الماء فسوف يطلق عليك الخفر النار ...

اشار إلى الخفر فجلسا على الشاطئ فى مواجهته ، واستدار لينصرف، ولم ينس أن يطلق تهديده الأخير :

– سوف تاتى زاحفا يابن الحرام ..

وظل صدى الصوت يتردد خلفه حتى اختفى ، وضع الخفيران البنادق على ركبتيهما وجلسا فى الانتظار ، ولم يدر آدم إلى أى مدى يمكن ان يبقيا هكذا ، جلس يائسا على الأرض ، تبددت من داخله طاقة الشجاعة المؤقتة التى انتابته عندما شاهد العمدة ، لم يبق إلا الجوع والحدة والإحساس بالحصار .

ساد الصمت ، لم يعد أحد يقترب من النهر ، لا النسوة جئن كى يملأن الماء أو يغسلن الثياب ، ولا الرجال جاءوا من أجل سقيا البهائم ، أصبح الشاطئ فجاة منطقة محرمة ، اختفت الشمس خلفه سحابة رمادية فأحس انه عاجز تماما ، كان جسده يرتجف والدوار يعذبه ، لم يكن فى طاقته ان يتحمل كل هذا العنف والجوع فى يوم واحد .

لم يعد يقوى على الجلوس فاستلقى على ظهره ، تبددت السحب ، ورحلت الطيور ، وبدات مياه النهر تقشعر ، رفع رأسه فشاهد الخفيرين جالسين وهما يتناولان الطعام ، لايدرى من الذى احضره لهما ولكنه ادرك ان الحصار سوف يدوم طويلا ، فكر فى مدى قسوة الليل القادم ، والشمس تسحب آخر اشعتها والريح تحتك بموج النهر ، قال لنفسه مهدئا .. ربما يذهبون إذا حل الظلام ، ولكن حتى لو ذهبوا ، لم تكن فى جسده قوة للسباحة ، لم يكن هناك مكان فى النجع يلجا اليه إلاخص غزالة .

كان هناك شخص آخر يجلس على الشاطئ بعيدا عن الخفر ، فتاة صغيرة تجلس فوق صخرة عالية مشرئبة براسها تحاول ان تراه بوضوح، صاح وهو يقف امامها :

- غزالة .. يا غزاااالة ..

ردد الصدى نداءه الفرح ، رأها تنهض وتلوح له بطرحتها السوداء ، كانت مثل شجرة نحيلة وحيدة على شاطئ ، الدليل الوحيد ان له جذورا تنتمى إلى هذا المكان ، رأى احد الخفر وهو ينهض من مكانه ويتجه اليها ، توقف آدم متوجسا ، لوح الخفير بيده وهو يشير إلى النجع البعيد ، لوحت هى أيضا فى وجهه . لم تكن تبدو خائفة ، قامتها النحيلة تقف مشدودة إليه ، صاح آدم :

- لاتخافى منه ياغزالة .. سوف اغرقه فى النهر ..

التفت الخفير نحوه فى ضيق ورفع البندقية واطلق رصاصة مفاجئة فارتمى آدم على الارض وصرخت غزالة فى رعب ، وعندما نهض كانت فى سبيلها إلى الانصراف وهى تلتفت نحوه حائرة .

جلس فى أسى وقد بدأ الظلام يطبق عليه ، سمع طقطقات الحطب ، ورأى الشرر يرتفع من ناحية الشاطئ ، والخفيران يواصلان النفخ ، ثم هبت رائحة الشاى ، شمها بوضوح برغم بعد المسافة ، لو انهم يعطونه كوبا واحدا مسكرا يقاوم به هذا البرد القاتل ، كانوا قد قرروا ان يقضوا عليه وهذه الليلة سوف تكون نهايته بلا شك .

سمع صوت حركة ،.. مجداف آخر يضرب الماء فى الظلام ، نهض وتلفت حوله ، الخفيران جالسان والنار موقدة بينهما ، من اين ياتى هذا

الصوت إذن ؟ . أهى محاولة أخرى للاستيلاء على جزيرته ، وقف وقد دب النشاط فى جسده ، لم يكن متاكدا إن كان قادرا على ردهم هذه المرة ، كان الوهن قد بلغ به اقصى مداه .

امسك الفأس وهو يحاول أن يحدد مصدر الصوت ، جرى بطول الجزيرة حتى شاهده ، قارب واحد يركب عليه شخص واحد ، المهمة سهلة ، ضربة واحدة على الراس فى هذا الظلام سوف تكون كافية ، سار إلى الحافة ورفع الفأس متحفزا ، سوف يتركه يتقدم حتى يصبح الراس فى متناوله تماما ، ساعتها لن يجرؤ أحد بعدها على المغامرة والاقتراب ، ولكن القارب توقف فجاة . ونهض الشخص الذى كان يجدف صائحا .

– أنزل فأسك واهدأ لقد جئت للتفاهم ..

لم يعرف الصوت فظل رافعا الفأس ، عاد الرجل يقول :

– لقد أحضرت لك طعاما ، أعرف انك لم تتناول شيئا طوال اليوم ..

ولمح يده وهى تمتد وفى آخرها صرة مستديرة ، لم يدرأ هو طعام حقا أم خدعة جديدة ؟ للمرة الأولى أحس بالتردد . كانت سيرة الطعام قد ثبطت من قوى الرفض فى داخله ، قذف الرجل الصرة لأقصى مايستطيع ، سقطت بالقرب من آدم فاخفض الفأس قليلا ولكنه ظل مستعدا ،عاد الرجل يقول :

– انا ابن معتوقة .. ألم تعرفنى بعد ؟! ..

نظر آدم إلى الشاطى ، الخفيران جالسان فى هدوء ، يشاهدان مايحدث فى صمت وتواطؤ ، هبطت يد آدم بالفأس أكثر وحدق فيه محاولا ان يتبين ملامح وجهه . قال :

– ماذا تريد ؟

ضحك ابن معتوقة بصوت مسلوخ وقال :

– لا أريد سوى الخير لى ولك .. أنا لست فلاحا لازرع لى ولا قلع ولا أحب الأرض ولا رائحة السبخ ، لذلك فأنا لست طامعا فى جزيرتك كالآخرين .. لقد جئت لأعقد صفقة انت الكسبان فيها ..

توجس أدم ، لعبة جديدة اخرى ، الجميع جاءوا واعلنوا رغبتهم فى صراحة ، حتى العمدة لم يخف لهفته ، ولكن هذا الرجل يسوق الأمر بنعومة خطرة ، قال بجفاء :

– اختصر ..

قال ابن معتوقة :

– انا فى حاجة لمثل هذا المكان ، انت تفهم طبعا ، ربما لم تكن من زبائنى ، ولكن مهنتى تجعل من هذه الجزيرة اصلح الأماكن ، بعيدا عن الأعين والتلصص واولاد الحرام .. وسوف نكون شريكين بالتساوى ..

وصمت ليسمع جواب أدم فظل صامتا ، تنهد ابن معتوقة وهو يقول :

– ما رأيك .

لم يدر ان ابن معتوقة قد اقترب إلى هذا الحد ، انه استطاع ان يرى بريق عينيه ويسمع صرير اسنانه .. قال أدم :

– لست افهم ..

بدأ يتحفز من جديد ، الخفيران بعيدان يواصلان شرب الشاى فى

هدوء حتى تتم خيوط الصفقة ، قال ابن معتوقة :

– مخك يزن الدنيا باآدم انت تفهم كل شئ .. سوف تكون هذه الجزيرة للمتعة والمزاج ..

قال ادم متبرما :

– انا لا أجيد مثل هذه الأشياء ..

رد ابن معتوقة فى سرعة :

– أنا أجيدها ، ليس مطلوبا منك غير ان توفر لنا المكان والحماية ، كل مانحتاجه هو بضعة اخصاص من البوص وكل شئ يصبح على مايرام ..

نظر أدم إليه ، حاول أن يخترق الظلام ليرى ما يدور فى ذهن هذا الرجل ، كان يعرف أن الجميع – من النجع ومن النجوع المجاورة وحتى من المركز القريب – يتسللون إليه ، الرجال من اجل المزاج والنساء من أجل المتعة والليل يلف الجميع ويخفى سرهم ، كان مثله منبوذا على حافة النجع ، ولكن الجميع يخشونه بقدر مايحتاجون إليه ، الآن يريد أن يزرع نفسه في هذه الجزيرة في مواجهة النجع ويحيط أعماله بسياج من الماء ، ضاق ابن معتوقة من صمته فعاد يهتف :

– هيه .. مارأيك ، كن شريكى ولن تندم ..

عاد أدم يكرر بنفس درجة الغباء :

– انا لا افهم فى هذه الأشياء ..

– معنا تكسب ذهباً ياحمار ، سوف ينحنى أمامك رجال القرية وتقبل النساء عضوك ..

– لا أريدهم .. لا اريد احدا منهم ،... ابتعد عنى ..

لم يغضب ابن معتوقة ، كان مدربا على عدم الغضب وعلى إنجاز هذا النوع من الصفقات ، جلس فى القارب واستعد للتجديف متراجعا وهو يقول :

– انت جائع ، والجائع لايحسن التفكير ، كل ثم فكر وسوف آت إليك غدا ..

ادار القارب وبدأ يبتعد ، وظل آدم واقفا حتى تأكد انه لن يستدير ويأتى من الناحية الأخرى ، رآه وهو يرسو ويقترب من الخفر ويتبادل معهم حديثا قصيرا ثم يمضي مبتعدا .

أمسك آدم الصرة ، فكها بأصابع مرتعدة ، ارغفة من الخبز وقطعة من الجبن ، بل وقطعة من اللحم الجاف ، ارتعد وهو يقضم كل شئ فى دفعة واحدة ، كان فمه جافا تماما ، مليئا بالقروح والبثور ، وبرغم الألم أحس بحياة جديدة تدب فى أعماقه ، أصبح قادرا الآن على مقاومة الاحساس بالبرد والوحشة ، هبط الطعام إلى جوفه فاعطاه الأمان وهدأ من روعه .

تحسس بطنه ، وتمدد على ظهره فشاهد النجوم ، تقلب على جنبه فشاهد نار الخفر وهى تخبو ، شاهدهما وهما ينصرفان بحثا عن مكان يحميهما من البرد والعراء ، أحس بالطين دافئا تحت ظهره ، أصوات الليل وهى ترتفع ، خليط الرياح والجنادب والذئاب ، وضوء القمر الشاحب واغمض عينيه فحلم ان النهر قد اضاف قطعة جديدة من الطين إلى جزيرته .

استيقظ مع أول اضواء الفجر ، شاهد تبدد الضباب وتبدل الألوان ،

اكل لقمة من بقايا طعام الأمس ، وتفقد جزيرته ، اكتشف ان الريح قد دفعت أحراشا من نباتات ورد النيل حتى تعلقت باطراف الجزيرة ، هدية اخرى من النهر ، إذا أحاطت هذه النباتات بالجزيرة فلن تستطيع القوارب ان تدنو منه ، وسوف يوفر له هذا نوعا من الحماية الطبيعية ، على الأقل يستطيع ان يركن إلى حمايتها فى الجهة التى تنمو فيها ،اخذ يقطع منها بقدر ما يستطيع ويكومه فوق ظهر الجزيرة ، عندما تجف هذه الأوراق العريضة سوف تصبح مادة جيدة للوقود وتضئ الليل لتعلن عن وجوده، وضع فوق الأوراق كتلا من الطين حتى لاتتطاير وانتظرشروق الشمس حتى يبدا صراع اليوم الجديد .

ظهر مغاورى على الشاطئ ، ركب قاربه وادار ظهره للجزيرة وجدف مبتعدا دون ان يحاول ان ينظر نحوه ، وقف بعيدا ثم بدأ يطرح شبكته ، ظهرالخفيران ، وقفا يتثاءبان ويفردان جسديهما ويسبانه بأحط الألفاظ لأنه كان السبب فى هذه الليلة الشاقة التى قضياها ، جلسا على الشاطئ واخذا يحاولان إشعال النار من جديد ، ظهر اناس متفرقون توقفوا بحميرهم وبهائمهم وتحدثوا إلى الخفر وهم يشيرون إليه ثم ينصرفون ، كانوا بشكل أو بأخر قد تعودوا على وجوده وان لم يكن موته سوف يدهشهم .

ظل يتجول فوق سطح الجزيرة ، راقب تجعيدات الطين وقد بدأت الشمس فى تشكيلها رسمت فوقها حروف الخصب الغامضة ، كانت أرضا متأهبة ، ذرات الطين فيها مشربة ، مشتاقة كى تفتح أرحامها وتتلقف أولى البذور وتبدأ دورة الحياة ، اخذ يحدث نفسه ، هنا سوف يبدأ شق الخطوط وحفر القنوات وزرع الشجيرات ، فى الوسط يكون كوخه

وسوف تاتى البهائم كى تنمو وتتكاثر ، وتأتى غزالة كى تطبخ له طبيخا عذب الرائحة ، سوف يبدأ عالمه ، ميلاده الحقيقى بعيدا عن رائحة الزرائب.

ظلت الريح تدفع ورد النيل وتكدسه حول الجزيرة ، جاء العمدة ولوح بقبضته واكد ان رجال المركز قادمون .. قادمون ، وقفز الخفر وهم يؤكدون له ان الحصار محكم وانه على وشك الموت جوعا ، وظل هو واقفا ممسكا بالفأس ، بدأت الشمس تعلو ، وجلس هو فى الوسط وقد عاودته الرجفة ، ارتفعت حرارته فجاة وبدأت الطيور تحوم حوله فأحس بها تخترق رأسه ، اغمض عينيه فأحس كانه يغوص فى طين مظلم بلا قاع ، فتح عينيه فرأى الشمس فوقه قاسية ، تذكر لحظات الدفء الأولى داخل الزريبة ، كيف لم ير هذه المرأة مرة اخرى .. وكيف حاول ان يطفئ جوعه إليها فى كل ضربة من ضربات فأسه .. ولكن الجوع لم ينطفئ قط .

زحف حتى نام فوق الفراش الذى أعده من اوراق ورد النيل ، ناعمة وطرية ، بدأت الرجفة تهزه بقسوة ، لافائدة ، انشبت الحمى اظافرها فى جسده ، ابتعدت السماء وغاص النهر ، حاول ان يرفع صوته مستنجدا فلم يستطع ، أين انت باغزالة .. كيف لاتستطيعين عبور النهر الى لتنقذى روحى التى توشك على الاحتراق .. ؟ .. مركب يعبر النهر فاردا اشرعته ، أراد ان ينهض ويصرخ فيهم طالبا الطعام والدواء فلم يستطع .

جسده كله ملقى كالخرقة البالية ، مضت المركب ومضى النهار وبدا ليل الحمى الطويل ، لن يكون ضوء القمر كافيا الليلة حتى يرى من يهاجمه ولن تكون فيه قوة لمقاومة أى شئ ، كل شئ قد هجع فجأة ، ولكن الرجفات التى تغمر جسده لم تهدأ ، اللعنة على هؤلاء الخفر ، لماذا يجلسون فى الظلام دون نار ، لماذا صمت كل شئ وتركوه وحده ، لماذا لا

يأتون إليه ويجذبونه إلى الشاطئ ويقولون له كلمات المواساة الأخيرة ويغمضون عينيه .

ظلت موجات الألم تغمر جسده ، كتم الصراخ حتى لايعرفوا مدى الضعف الذى وصل إليه ، لم يعد بداخله إلا روح رخوة على وشك الذوبان، احس بحركة تخترق الصمت ، تقلب فى وهن ونظر إلى الشاطئ ، كان الخفر يهيلون التراب على النار ، متى اشعلوها ولماذا يطفئونها ؟ . داسوا عليها باقدامهم حتى يخمدوها تماماً ، ثم صعدوا إلى الشاطئ متجهين ناحية النجع ، لقد فكوا الحصار ، ذهبوا بعيدا برغم ان العمدة قد شدد عليهم الأمر فى الصباح .

هناك اشباح على الشاطئ ، لاتظهر بوضوح تحت ضوء القمر الشحيح، السحب كثيفة ، كل شئ يجعل فرصته فى النجاة ضئيلة ، نهض وهو يترنح ، استند على العصا بدلا من ان يكون قادرا على رفعها ، قوارب جديدة تهبط إلى الماء ، أهو انت يابن معتوقة ام طامع آخر ، هل من أجل هذا هرب الخفيران حتى لايكونا شاهدين على مايحدث ؟ ..

ضرب المجاديف ، حاول ان ينصب قامته ، ولكن رجفة الحمى كانت تصر على ان تجعله يقف متقوسا ، الضربات ترتفع ، وكتلة سوداء تقترب من جزيرته فى إصرار دون اهتمام به ، واحد يقف فى المقدمة ويشير إليه ، يتحدث فى صوت مرتفع ابن معتوقة عاد ولكن ليس وحده ، يصيح فى صوت عال :

– مرحبا ياآدم ، جئتك فى الميعاد ، ورأيت ان أصرف الخفر حتى نكون على راحتنا .

لم يرد آدم ، ظل مستندا إلى العصا وهو يحاول ان يدارى رعدته ، رفع

ابن معتوقة صرة اخرى فى يده وعاد يقول فى صوت ناعم :

- أحضرت معى طعاما ايضا .. لحماً .. لحماً خالصاً هذه المرة .

ظل ممسكا بها فى يده ، لم يلق بها كالمرة السابقة ، حدق أدم فى القارب ، إذا كان قد جاء للتفاهم فلماذا احضر معه كل هؤلاء الرجال ؟ كم عددهم ياترى ؟ . عاد ابن معتوقة يقول متظاهرا بالمرح :

- ماذا قلت ، تضع يدك فى يدى ونتوكل على الله ، دعك من الحرث والقلع ، هذا رزق ساقه الله اليك فاستغله ، كبار البلد سيأتون إليك هنا ، العمدة والمأمور والمحافظ شخصيا ، سوف يسيل الذهب تحت قدميك .

ازدادت رعدة أدم وخاف ان يسقط على الأرض امامهم ، هتف بكل قوته:

- ابتعد ..

قال ابن معتوقة فجاة وقد تغيرت لهجته وتبددت منه نبرات المرح والمداهنة :

- انا لا أمزح يابن الحرام ، إما ان تكون هذه الجزيرة لى ، وإما ان تعود للزريبة التى ولدت فيها .

تقدم أدم ، انتصب بجسده وتحفزت يداه على العصا وانتظر ان يتقدم القارب ، لم يتحرك ابن معتوقة ، نهضت اشباح سوداء من قاع القارب ، وقفوا وهم يحملون فى ايديهم عصياً اكثر غلظة من عصاته الوحيدة ، تقدم القارب بثبات لاردة فيه ، ترك أدم العصا وأمسك الفأس ، لافائدة، كانوا كثيرين .. صاح :

- ابتعدوا ياأولاد الكلاب ..

ولكنهم اقتربوا كالقضاء ، هوى بالفأس فاهتز القارب قليلا ولم تؤثر فيه الضربة كثيرا ، قفزوا منه ، بعضهم فى الماء وبعضهم استطاع الوصول إلى اليابسة ، حاول ان يهوى على واحد منهم ولكنه زاغ منه فى حركة بارعة ، لم يكونوا فلاحين عاديين ، كانوا اولاد ليل مدربين ، جمعهم ابن معتوقة بالأجر وهو مصمم على ان يلقنه درسا ويسلبه جزيرته ، أحس آدم بضربة على ظهره ، استدار فتلقى اخرى على ذراعه ، ثم على كتفه وبطنه ، راى ابن معتوقة وهو يقفز من القارب ويستوى بقدميه على الجزيرة ويحدق فيه وهو يتهاوى والعصا تنزل على بدنه تفجر كل منابع الألم ، أصبح الظلام اشد كثافة ، لم يعد يراهم ، كان يحس بوقع عصيهم ويسمع صوت انفاسهم المحتدمة ، وابن معتوقة يستحثهم ، الأم اشد من يجعله يفقد وعيه ، جسده يتلقى نصيبا وافرا من العقاب ، سقط على الأرض ، لمسها بيده ثم احس بها تحتويه ولكنها لم تقدر على منع الضربات المنهالة عليه ، حتى الموت المريح لم يظفر به ، آقدامهم تدق اضلاعه ، لماذا لاياخذون كل شئ ويتركون فى جسده بضعا من هذه الحياة المهينة .

سمع صوتا ما ، طلقة نار ، قصفة رعد ، توقفت الضربات فجأة ولم يتوقف الألم ، ظل يتحرك محاولا ان يتقى شرا ما ، هناك من يلمسه ، يتحسسه ، لاضرب ، صوت انفاس ، ليست انفاسه ، رفع ذراعه ثم اضطر لإخفاضها حين اشتد الألم ، شئ يعاود لمسه ، يستكشف ما بقى منه سليما وما تحطم ، النداهةتأخذه معها إلى قاع البرودة والموت ، ثم يأتى دفء غامض ، نجوم تحترق ، نجوم من اللحم الأبيض الحى .. هل عادت من ظلمة الزرائب ؟ .. دفء والم ، مدي أصابعك إلى ياغزالة ، دعى أباك فهو يريد ان يبيعك فى صفقه خاسرة قبل أن يموت ، أهى يداك التى

تعرى ثيابى وتمس جروحى فاصرخ متأوها باسمك .. ؟ ثم يدخل الضوء الزرائب يغسلها ويزيح ماأمامه من أوساخ ، يهيئ له مرقدا فوق الصخور وتحت اشجار الصفصاف ، أهى انفاسك ياغزالة ؟ . ليل احمر كالدم ، فجر رمادى كالرصاص ، نهريذوب من فرط النسيان ، اشجار الجميزبعيدة ، لاتنزف حين تجرح ، تدخل فى لحائها السحب والعصافير ، وحين تلتئم اضلاعه المكسورة ذات يوم سوف يصبح مثلها ، تدخل فى صدره السحب ويمتلئ قلبه برماد المتاهات ، لماذا لايفقد وعيه . لماذا لايفيق ؟ .

ماهذا الصراخ المؤلم وسط الصمت المتماوج الذى ينزلق فيه النهر المتواطئ والجزيرة الخادعة ، هذه الفراشات السوداء لاتأتى الا من حلم غريب ، جسدها الأبيض يحيط به أم ضباب الصباح ، لماذا لايكف ورد النيل عن البكاء ؟ كانت تأتى إليه ، متشحة بثوب أسود ، وجسدها أبيض وفخداها دافئتان وقلبها شاسع ، تفتح له بوابات الريح فتدخل النجوم فى عروقه فى نشوة مؤلمة ، لا يتطهر منها إلا عندما يغتسل تحت اشجار الصفصاف ويدعك جسده بأوراقها الخضر .

كان للنهر عينان خضراوان ، وصوت كالبنفسج والشمس تتفتق كالأطفال فى وداعة ودفء ، كم كان وحيدا دائما ، رداء ممزق متسخ ، وخص من البوص ، وحلم من العدم ، يدخل الموت فى اضلاعه ويخرج ولاتستيقظ افراس النهر الرابضة فى القاع ، ماذا يحدث له ، كيف يختلط الدفء والألم ولماذا لايأتى الظلام ؟!

فتح عينيه فوجد كل شئ قد تبدل ، السماء مضاءة بلون رمادى ، أقبل الصباح وجسده مستلق على فراش ورد النيل ، مغطى بأوراق ورد النيل ، وعلى قيد الحياة ايضا ، حاول ان يتحرك فشعر بالألم فى كل

جسده ، سكن فى مكانه ، خاف ان تنفرط كل أعضائه ، رفع يده بحذر وازاح الأوراق ، حتى يده كانت تؤلمه ، عليها بقايا من الكدمات والدم الجاف، تحسس وجهه ، متورماً مليئاً بالجروح ، خاف ان يتحرك اكثر من هذا ، كيف تركوه حيا ؟ وكيف تركوا له الجزيرة وكيف حدثت هذه المعجزة ومرت الليلة عليه ؟ . كان يجب ان يتحرك حتى يعرف الإجابة علي كل هذه الأسئلة .

ارتطم بشئ يرقد بجانبه ، جسد آخر ، دافئ ، يلتصق به ، حيوان مستكين ملئ بالحياة التفت فى فزع ، شخص آخر ، مغطى مثله بأوراق ورد النيل ، ازاح الأوراق فرأى وجهها ، امراة ، شعرها طويل وفاحم ، ثوبها الاسود يمتد مع انحناءات جسدها تنتفس فى هدوء ، مستغرقة فى النوم كأنها فى بيتها وعلى فراشها ، رفع راسه ، تأمل الشاطئ الخالى،والضباب المعلق ، لا احد ، لا اثر للقوارب ، وهذا الجسد ، هذا هو سر الدفء الغريب الذى شعر به طوال الليل

مد اصابعه المرتعدة وازاح خصلات الشعر من على وجهها ، بدت ملامحها ، لم تكن غزالة ، لم تكن اى امراة يعرفها ، لم تقترب منه إمرأة إلي هذا الحد منذ زمن بعيد ، سمراء ، خرجت هى والجزيرة من رحم واحد ، عيناها منسدلتا الجفون تحتل معظم وجهها ، انف عال مشرئب ، شفتاها ممتلئتان ، منفرجتان قليلا ، شهوة غامضة ، وذلك الشعر الفاحم يحيط بكل شئ يعطيها طابعا بريا، لم يخفف النوم الوادع منه ، كان النهر قد اخرجها له بعد الجزيرة ، وربما لم تكن تمت لعالم البشر والا فكيف عبرت النهر وكيف وجدت فراشه بين ثنايا ورد النيل ؟ .

تطلع حوله ، الشمس تأخرت عن الشروق ، والريح دفعت بالمزيدمن

النباتات فاحاطت الجزيرة من كل جانب ، اكتملت حمايته اخيرا ولكن بعد ان تسلل إليه هذا الجسد الدافئ الغامض ، رائحتها تملأ انفه ، تجعل جسده ينتفض برغم ما فيه من ألم وجروح ، خيل إليه انها تعى كل شئ برغم نومها ، مد يده وهز كتفها فلم تستجب ، كان نومها ثقيلا ، هزها من جديد ، فتحت عينيها فاكتشف كم هى واسعة وعميقة ومفعمة بالألق وغامضة أيضا ، حدقت فيه وهى مازالت مستلقية ، لم تفكر فى النهوض ، استدرات فقط فرأى مدى ارتفاع نهديها ، قالت :

- ألم تمت بعد ، كنت اخشى الاتمر هذه الليلة عليك .

صاح فى صوت أجش :

- من أنت ؟ ..

- انا الذى انقذت حياتك ليلة أمس .. أنا وهذه .. مدت يدها وسط الأوراق ثم رفعتها وهى تحمل بندقية ، تأملها مبهورا وخائفا ، لابد انها هى التى أصدرت هذا الصوت المزعج الذى سمعه قبل ان يفقد وعيه ، ظل يحدق فيها دون ان يفهم ماحدث بالضبط ، أهى حيلة أخرى .. طامعة جديدة فى جزيرته ؟!

وضعت البندقية وأدارت رأسها وأصبح انفها ونهداها متجهين إلى السماء ، قالت :

- أعد الأوراق وغطنى من جديد ، لا أريد لأحد على الشاطئ أن يرانى .

لم تكن قد قالت له شيئا عن نفسها حتى الآن ، راوغته ، طاف ببصره على الشاطئ البعيد وقال :

- لايوجد أحد

قالت وهى تنهض :

– الحمد لله ، سوف تعطينى هذه فرصة للتنفس ، ورد النيل هذا سوف يمنعهم مؤقتا من الوصول إلينا ، وسوف يعطيك الفرصة حتى تشفى من جروحك الكثيرة

تتحدث بثقة شديدة ، ثقة الشريك الذى يحدث شريكه ، صاح فى حدة:

– سواء أكان ورد النيل موجودا أم لا .. لا أريد أحدا علي جزيرتى .

قالت دون ان تبالى بحدة لهجته وفى صوت رائق خفيض :

– انت اضعف من ان تقرر ذلك ، جروحك كثيرة ، واعداؤك كثيرون ، انت فى حاجة ماسة إلى أحد بجانبك . . خاصة إذا كان يمتلك بندقية ..

– يجب ان أعرف أولا من انت .. وماذا تريدين ؟ ..

ازاحت خصلة الشعر من على وجهها واعتدلت فى مواجهته وهى تقول :

– انت كثير الأسئلة ... لولاى لأخذ ابن معتوقة الجزيرة والقى جثتك فى النهر دون ان يأبه أحد بالسؤال عليك ..

– انت من النجع .

– طبعا ..

– من أى عائلة ..

– عائلتى هم أسياد النجع .. هل يكفيك هذا ؟ ..

– طبعا لا .. لقد أثرت خوفى اكثر .. لم اقدر على امثال ابن معتوقة

فكيف اقدر على السادة ..

– لا احد يدرى اننى جئت إلى هنا .. ولن يقدر أى قارب على القدوم إلينا .. أمامنا وقت نتدبر فيه كل شئ ..

– الجزيرة مكشوفة وسوف يرونك ان عاجلا أو آجلا .. اتركينى فى حالى واذهبى كما جئت .

قالت فى نعومة :

– القارب الذى جاء بى رحل .. ولن يستطيع العودة الآن .. هتف متوجسا :

– من الذى جاء بك .. ؟

– لايهم .. المهم اننى جئت فى الوقت المناسب وانقذت حياتك ..

لو يستطيع النهوض ، لو انه يقدر ان يحملها ويلقى بها فى الماء ، كان عاجزا وكانت هى تعرف ذلك ، لمح ابتسامة الاستخفاف على وجهها ، ظلت نائمة ، عيناها على السماء ، يدها على البندقية الراقدة بجوارها ، قالت كأنها تحدث نفسها فى صوت خافت :

– لو ان هذا الطقس يستمر لبضعة ايام ، يمكنك ان تشفى وتنهض وتبنى لنا بيتا .

صاح فى غضب :

– سوف أفعل كل شئ ولكن وحدى ، هذه الجزيرة ملكى وحدى ولا أريد شريكا عليها ..

ضحكت فى صوت رائق :

- لا تغضب لهذه الدرجة ، وحدك لن تحصل علي اى شئ ، سوف ياكلونك .. جلس ، مد يده فجاة ودفعها بعيدا ، تقلبت من على الورق الأخضر ، سقطت وسط شقوق الطين وصرخ فى ضيق :

- ابتعدى عن جزيرتى .

نهضت ، أمسكت البندقية وهوت بها على يده التى دفعتها صاح من الألم ، هتفت فيه بوحشية .

- إياك ان تلمسنى مرة أخرى .

انتشر الألم من يده إلى بقية جسده كى يؤكد عجزة عن ردها ، وانها شريكته فى الجزيرة رغما عنه ، ولن يستطيع ان يلقيها فى النهر بسهولة حتى ولو تماثل للشفاء مادامت معها هذه البندقية ، عادت تجلس متحفزة أحس بمدى ما فى جسدها من وهج وحشى ، اشاحت بوجهها للناحية الأخرى ، وخيم الصمت وظل الفزع يلازم أدم وهو يراقب كل تحرك من تحركاتها ، ظهرت الشس ببطء ، ولكن الدفء كان بعيدا ، استلقت ثم قالت فجاة :

- هل هناك أحد على الشاطئ ؟ ..

قال متبرما وهو يرفع رأسه ؟ ..

- كلا .

نهضت ببطء واخذت تتحسس ظهرها ، ادارت رأسها فى حذر قال آدم:

- انت خائفة .. هاربة .. اليس كذلك ؟ ..

- لست خائفة .

– لن تبقى مستلقية على ظهرك طوال الوقت ، كان يجب ان تبحثى عن مكان آخر غير هذه الجزيرة المكشوفة .

– اعرف .

صمتت ، جلست غارقة فى التفكير ، كان يدرك ان أمامه يوما طويلا من ايام العجز ، كل حركة تسبب له ألما لايطاق ، ربما وهبه الطين الذى تحته القوة كى يتماثل للشفاء بشكل اسرع ، كانت الريح هى الشئ الوحيد الذى يتكلم وظل الصمت سائدا بينهما ، ينسج استارا من العداء مع كل لحظة تمر ، حاول ان يؤكد لنفسه انها قد انقذت حياته وان شريكا معه افضل من ان تضيع الجزيرة كلها منه ، ولكنه لم يقتنع ، لم يصدق انه خسر بهذه السهولة برغم ان الامر كله كان خاسرا منذ البداية .

بدأ الناس يظهرون على الشاطئ ، استقلت على ظهرها وهى تهتف :

– ضع الأوراق .. اخفنى تماما ..

فعل كما قالت ، ولكن الأشباح التى ظهرت على الشاطئ عبرتهما بلا اهتمام ، خيل اليه انه لمح العمدة ، والخفر وبعض الفلاحين ، لم تهبط قوارب الصيد وامتدت نباتات ورد النيل كالفخاخ الخادعة ، تشكلت السحب واكتسبت لون الرماد الداكن ، حامت طيور مقرورة دفعتها الريح بعيدا إلى افق مجهول ، ظلا مستلقيين ، متباعدين ، يرفعان رأسيهما كل حين ، وتجلس هى قليلا إذا احست بالزمان ثم تعاود الاستلقاء ، ثم جاءت غزالة بقامتها النحلية ، وقفت على الصخرة ونادته بصوت عال ، حاول ان ينهض ، كان الألم شديدا ولكن لأيجب ان تعود غزالة خائبة .

رفع رأسه وجلس بصعوبة ، تأوه فقالت المرأة فى ضيق وهى

مستلقية:

– أيها المجنون ..سوف تؤذى نفسك وتفتح كل الجروح .

ولكن صوت غزالة ، يناديه فى إلحاح ، لم تكن تراه بوضوح ، أمسك العصا وارتكز عليها ، رفع كتفه وحرك ساقيه ، نظرت المراة إليه فى استغراب ، كانت تريد ان تعرف سر هذا الصوت الذى بعث فيه كل هذه القوة ، زفرت فى سخرية وغيظ ، ودت لو تنهض لتشاهدها بوضوح ، وظل هو يواصل المقاومة حتى استطاع ان يقف متقوسا متأوها على العصا ، انتصب اخيرا ورأته غزالة بوضوح ، صاحت تحدثه بكلمات لم يتبينها ، كانت تريد ان تطمئن عليه وصاح هو من أعماقه :

– انا بخير ياغزالة ..

تحول وجهه كله إلى حدقتى عين وهو يحاول ان يستجلى كل ملامحها ، وظلت المراة الأخرى صامتة لاتتحرك ، كل مافعلته هى انها مدت يدها وقبضت بها على البندقية ، صاح أدم متمنياً :

– لو انك تأتين يا غزالة ..

توقف الشجر عن الاهتزاز ، ونفضت الطيور البرد من على ريشها ، وبرز من خلال السحب ألق ضوء دون ان تظهر الشمس ، أجهدهما الصياح فظلا واقفين صامتين ، يكفى ان كل واحد منهما يشاهد الآخر ، ولكن حتى لحظات الصمت المفعمة لم تدم طويلا .

بدأت السماء تزمجر ، واختفى الضوء ،ارتجف النهر من اهتزاز صوت الرعد ، بدأت خيوط المطر ترسم دوائر صغيرة متتابعة على وجه الماء ، وضعت غزالة الطرحة على وجهها ثم هبطت من فوق الصخرة ، لوحت

له بيدها واختفت خلف الأشواك البرية ، وظل آدم واقفا لعله يلمحها مرة أخرى ، لايصدق أن الشاطئ قد أصبح خاليا منها، بهذه السرعة ، ضربه المطر بقسوة حتى خارت ركبتاه ، جلس مجهدا ، فوجئ بعينى المراة وهما تحدقان فيه ، لاسخرية ولاتشف ، نظرة حائرة ، محاولة للاكتشاف، تريد أن تعرف سر خيوطه الممتدة مع الشاطئ ، لم تسأل ، كل مافعلته انها راقبت طاقة الحياة المؤقتة وهى تتبدد من جسده ، ظل جالسا متكئا على العصا ، تحركت وأخذت الأوراق العريضة وبدأت تحاول تغطية جسده من المطر دون جدوى ، اشتد المطر وأصبح جارحا ،

كانا وحدهما فى مواجهة السماء الغاضبة ، تحتهما الجزيرة والطين المخادع ، غاصا معا تحت الأوراق ، بيت مظلم وهش ومبتل ، ارتجفا معا وايقنا بالهزيمة معا ، ورغما عنهما اقتربا ، تلاصقا ، لعل هناك بقية من الدفء تساعدهما على المقاومة ، قالت فجاة وهى ترتجف من قسوة البلل:

– يجب ان يكون لنا بيت له جدران وسقف .

فكر فى غزالة ، من الذى من حقه ان يحلم هذا الحلم ، ابتعد عن جسدها رغما عنه ، ترك بينهما مسافة من الطين اللزج والمطر الجارح ، قالت له :

– من هذه الفتاة .. هل هى خطيبتك ؟ ..

– أجل .. لكننى لم أكن أملك شيئا .

– أنت الآن تملك الجزيرة ..

– وانت فيها ..

– لولاى ماملكت حتى حياتك .

قالت ذلك فى لهجة باترة ، ظلا متباعدين برغم انهما لم يكفا عن الارتجاف ،وببطء شديد ، ودون وعى تقريبا ، عادا للالتصاق مرة أخرى ، قال لها :

– ما أسمك ؟ ..

– وردة ..

– أهو أسمك الحقيقى ..

– لاجدوى من إخفائه ..

توقف المطر قليلا ، ظلا متلاصقين ، مبللين ، بلا دفء ولا رغبة ، قالت :

– معى نقود ..

ضحك فى صوت مرتجف :

– ومافائدتها ، أنها غير صالحة للأكل ..

قالت فى لهجة لايمكن مقاومتها :

– سوف تهبط إلى النجع ، تحضر لنا طعاما واغطية وبعضا من أغصان الشجر .. ثم تعود ..

ابتعد عنها وهو يصيح فى فزع :

– مستحيل .. سوف يقتلوننى ..

– لماذا .. انت لم تقتل أحدا ، لقد أخفتهم وسوف يظلون خائفين منك ،

لقد عرفوا بلاشك ماحدث لابن معتوقة وسيزيد هذا من مهابتك .. لن يمسك أحد مادمت تملك ثمن ماتريد ..

– والعمدة .. والخفر ؟ ..

– بضعة جنيهات وسوف يتظاهرالخفر انهم لم يروك مطلقا .

– والجزيرة .. ؟ ..

– سوف أبقى هنا ومعى البندقية ، ولا تنس أن ورد النيل يحيط بنا ..

نظر إليها ، لم تعد شريكته ، لقد أصبحت توجهه وتأمره ، استيقظت فى داخلها سطوة السادة وتخادل هو أمامها بمنطق الأجير ، قال فى صوت ضعيف :

– لا أستطيع أن أسبح وانا فى هذه الحالة

قالت فى سرعة :

– لو جاء الغد ونحن على قيد الحياة يمكنك أن توسع مكانا وسط النباتات وتركب مع «مغاورى» أدفع له مايريد ..

مدت يدها إلى صدرها تحت جلبابها وأخرجت من بين نهديها لفة صغيرة وهى تقول :

– معى مايكفى من النقود حتى تنجو من الموت ..

لم تهدأ الريح الباردة ، ظلت تصفعهما بلاهوادة ، تزيح الأوراق من على جسديهما ، عادا للالتصاق مرة اخرى وهما على حافة التجمد ، كانا جائعين ، مرتجفين ، لم يمر بهما قط مثل هذا النهار الطويل وهذا الليل الطويل ، لم تكن هناك نجوم ، سمعها وهى تتأوه فى خفوت ، لم يدر إن

كانت مستيقظة أم انها تحلم بشئ مؤلم ، وتمنى ان يشرق الفجر كما لم يتمنى شيئا قط ، كانت قد رسمت له الطريق الوحيد للنجاة ، ان يهبط إليهم ويواجههم بدلا من أن يبقى هكذا جالسا فى انتظارهم ، ظل يحدق فى السماء القاسية ويسمع ارتجافات المرأة حتى انشقت السحب وظهر خيط من الضوء الشحيح .

نهض برغم الألم ، انزاحت السحب ببطء وانتشر اللون الرمادى فوق سطح الماء ، نهضت وقد أحست بحركته ، كانت شاحبة تماما ، وجهها جامد وشفتاها زرقاوان ، وشعرها ملتصق برأسها ، ملطخ بالطين ، مدت أصابعها الباردة وحاولت ان تزيحه وتستعيد شكلها ، كانا معا فى حاجة إلى شروق الشمس ، مدت يدها بلفة النقود ، أخذها وتأملها ، أوراق حمراء ، ملتفة ومبللة ومازالت متماسكة ،أكبر مبلغ أمسكه فى حياته ، طوال عمره وهو لايمسك إلا فتات النقود وبقايا الطعام ، سارا معا إلى حافة الجزيرة ، كانا أحياء ، وكانت الحياة تدب أيضا فى الكون ، صعدت الشمس وسار أدم إلى المكان الذى يقل فيه ورد النيل قليلا ، يترك ممرا ضيقا لقارب صغير ، ظل واقفا مترقبا ، شاهد وردة وهى تدور فى انحناء الجزيرة ، هى تنحنى لتقطع المزيد من الأوراق الخضراء ،

تضيفها للكومة القديمة المبللة ، كان الأمل فى شمس اليوم أن تجفف كل شئ وتهيئ لهما فراشا مريحا .

جاء مغاورى اخيرا ، هبط إلى قاربه وهو يدير وجهه بعيدا عن الجزيرة ، صاح أدم :

– مغاوورى ..

ولكن مغاورى ضرب المجاديف وهو يبتعد ، عاد أدم يردد الاسم

متوسلا ، توقفت المرأة لترى مايحدث فى قلقل ، نامت على الكومة حتى تختفى عن انظارة ، التفت مغاورى إليه اخيرا ، كان غاضبا لم ينس بعد كيف هدده أدم وأبعده عن الجزيرة ، قال أدم بذات الصوت المتوسل :

– أريد أن اهبط إلى الشاطئ ..

– اهبط كما جئت ..

– ساعطيك ماتطلب ..

– انت لاتملك سوى قطعة من الطين ، وهى لاتساوى شيئاً ..

قال ذلك وهى يشير إلى الجزيرة بلا مبالاة ،ولكن هذا كان هو الاعتراف الذى يسمعه أدم ويؤكد له انه يمتلك شيئا ، قال أدم وهو يلوح أمامه بالنقود :

– معى نقود سأعطيك ماتريد ..

لمح مغاورى النقود فبرقت عيناه ، قال أدم :

– ساعطيك جنيها كاملا

– اثنان ..

– اثنان ..

– قلت ثلاثة يعنى ثلاثة .

وجدف بالقارب بأقصى مايستطيع متجها إليه ،ولكن ورد النيل برغم كل مابذله أعاق تقدم القارب ، هبط أدم إلى الماء البارد ، سبح حتى تشبث بحافة القارب ، وظل مغاورى يجذبه حتى صعد إليه ، استلقى مجهدا ونظر مغاورى إليه لأول مرة مشفقا ، كان يرى أمامه رجلا ميتا يحاول أن

يبـقى حيـا بكل مـايملـك من قـوة فـى داخله ، شـاحـبـا ، عـجـهـدا ، هتف مغاورى:

– ياه ياآدم ، كيف احتملت كل هـذا ..

هبط إلى قاع القارب ، دس يده تحت الحـاجز الخشبى واخرج رغـيفا من الخبـز ، ناوله لأدم الذى امـسكه وهـو يرتعد ، خـيل إليه انه عـاجز عن فـتح فمه وتحريك فكيه ، هتف به مغاورى مشجعا :

– كل ياآدم ، لم يبق بينك وبين الموت سوى شعرة .

قضـم آدم باسنانه على الرغيف ، أحس بطعمه الجاف الغريب فى فمه ، ثم وهـو يهبط فى جـوفه ، دفء غريب ، تذكر المرأة ، هى الآن جائـعة مثله على حافة الموت ، هل تستطيع ا ن تقـاوم حتى عودتـه ،واصل القضم دون ان يلتفت إلى الوراء ، قال مغاورى وهـو يجدف متجها إلى الشاطئ :

– والله ياآدم أنت ابن حـلال ، ولكنك عـصـبى ونكدى ، طول عـمـرك لم تفكها .

فـرغ آدم من التـهـام الرغـيف ، مـال على حـافة القـارب وأخـذ يعب الماء يكفه ، ثم ارتكن مرخيا ومبللا ، قال مغاورى وهـو يواصل التجديف :

– هل تريد رغيفاً آخر .. ؟ ..

قال آدم :

– أريد أن أبنى « خصا »

– ساسـاعدك ، سانقل اليك أغصـان الشجـر وأعـواد البوص ، على الأقل أستطيع الراحة عندك وتناول ، كوب من الشاى .

وقبل أن يجيب آدم اضاف مغاورى :

– لن آخذ منك إلاخمسة جنيهات ، كل شئ له ثمن ..

فكر آدم انه قد أصبح له سعر ولديه مايطلبه الآخرون ، المال والطين ، قال مغاورى مستدرجا :

– ولكن إلى أين انت ذاهب ؟ ..

– إلى النجع .

– سيقتلونك ، على الأقل العمدة والخفر ..

– لن يقتلنى احد وانا وسط الناس

وصلا إلى الشاطئ ، استعد آدم للقفز ، ألقى العصا أولا ، ولكن قبل ان يقفز أمسك «مغاورى» بساقه وهو يقول :

– حقى .. ؟ ..

– عندما أعود ..

– واغصان الشجر .. والبوص .

– عندما أعود .

نظر مغاورى فى مكر نحو الجزيرة وهو يقول :

– ومن سيحرس الجزيرة فى غيابك ..

قال آدم فى تأكيد :

– لن يجرؤ أحد على الاقتراب منها ..

قفز إلى الشاطئ ، تخطى الأشواك ، سار عبر الحقول التى كان يعمل

فيها قديما ، كان يترنح ، لايستطيع ان يثبت قدميه فى الأرض ، وزاد من الآمه الجروح الكثيرة المنتشرة فى جسده ، ظل قابضا على العصا يدقها فى الأرض ويعتمد عليها ويواصل السير .

كان النجع أمامه ، راقدا تحت النخيل ، والحقول الخضراء ممتدة ، على أطرافها توقفت البهائم عن المضغ وحدقت فيه بعيونها الواسعة ، كان شكله قد أصبح غريباً ، بريا ، جلبابه ممزق ، ملطخ بالطين وشعره أشعث ، وملامحه صلبه ، كان فيه نوع من الرهبة برغم إعيائه وجروحه ، كانه خلق فى هذه اللحظة ومازالت بقايا الطين عالقة به ، توقف الرجال الذين فى الحقول عن العمل ، تركوا ما فى أيديهم وبدأوا يسيرون خلفه ببطء حرصوا على أن تظل هناك مسافة بينهم وبينه ، وحرص هو أيضا على الا يلتقت إلى الخلف برغم انه كان يسمع صوت اقدامهم وهمهماتهم، بدأ النخل يكبر والبيوت الطينية تظهر ، أحس بالتعب ، كان جسده فى حاجة إلى اكثر من الخبز الجاف ، ظهرت اطراف النجع ، الترعة الطينية التى تشقه إلى نصفين والتى تمتلئ بالروث والأوساخ اكثر مما تمتلئ بالماء ، أخصاص القش التى تكون أول من تنهدم وأول من تحترق ويسكنها الأجراء والمعدمون ، فى وسطهم يندس «الخص» الذى تسكنه غزالة ، هل يجرؤ على الذهاب إليها وخلفه كل هؤلاء الشهود ، جذوع النخل تحيط بالنجع من كل ناحية ، قضبان راسخة لاترحل .

خرجت النسوة ووقفن على أبواب الأخصاص ، نظرن إليه ، عجائز ، ممصوصات ، كن يعرفنه جيدا ولكنه الآن كان مختلفا ، لم ينظر نحوهن، اجتاز المسجد المهدم والسواقى المهجورة ، والجسور المحطمة التى يسكن تحتهاالجن ، ثم وصل إلى المقهى الذى لا يجلس عليه الأجراء من أمثاله ، لا

يجلس عليه فقط الا القادرون على دفع ثمن المشاريب واللعب ، نصف مفتوح ، غير ممتلئ ولكنه دافئ، تتصاعد منه حرارة الجمر والماء المغلى ، ازداد جمع الناس الذين يسيرون خلفه ، تردد آدم قليلا ثم دخل وجلس على أول مقعد ووضع ساقه المتسخة فوق ساقه المتسخة الأخرى ، وصفق بيده صائحا :

- واحد شاى ..

صمت قليلا كأنه يمعن التفكير ثم عاد يصيح :

- اثنان ..

جاء «المهدى» صاحب القهوة ، حدق فيه بحيرة واشمئزاز ، تأمل الحشد الذى كان يقف مترقبا مايحدث ، قال :

- لم نبدأ بعد .. قل ياصبح ..

صاح آدم وهو يدق الأرض بالعصا :

- قلت لك أريد شايا .. اثنين ..

بعث وجهه الصلب وعصاه الغليظة بالرعب فى «المهدى» ، ولدهشة الجميع تراجع من أمامه ، ودخل وراء «النصبة» الضيقة وبدأ يعد الشاى ، تلكأ البعض ، بعضهم جلس على المقاعد ، والبعض الآخر على حافة الترعة فى الانتظار ، جاء الشاى ساخنا ، محلى بالسكر ، تتصاعد منه أبخرة عذبة ، أمسك بالكوب الساخن ، قبض عليه بأصبعه حتى ينسرب الدفء إلى كل جسده ، انحدرالسائل المغلى إلى اعماقه ، ملأ معدته ، انتفض جسده كله وهو يشعر بلسعة السخونة ، تناول الكوب الثانى بذات اللهفة ، تحولت كل الوجوه إلى عيون مترقبة ، لم يعد آدم يهتم بأى

شئ ، لاالعمدة ولاشيخ الخفر ، كل لحظة تمر تزيد من طاقة الحياة الموجودة فى داخله ، واخيرا بدت على وجهه الأشعث المغبر شبح ضئيل لابتسامة .

وقف المهدى أمامه وهو يمد يده ، مد آدم يده أيضا وهى تحمل الورقة الحمراء ثم أسقطها على المنضدة بلا مبالاة و تأملها المهدى قليلا ومط الجميع رقابهم ، قال المهدى :

- المقهى يعمل طوال اليوم ولايكسب مثل هذا المبلغ

نهض آدم وأمسك بالعصا وهو يقول :

- يبقى لك .

وخطا سائرا واثقا مبتعدا عن المقهى ، وضرب المهدى كفا بكف عاجزا عن فعل أى شئ ، سار وساروا خلفه ، سمع تعليقاتهم وهى تتعالى من خلف ظهره ، أزاحت الضجة عن النجع صمت التردد ، حولت خطواته إلى شئ عادى ، جزء من النسيج اليومى للغمغمات والثرثرة ، سار فى الطرقات الواسعة والضيقة ، فتحت النوافذ ، ونظرت إليه النسوة من فوق أسطح البيوت .

توقف أمام دكان «مرعى» البقال ، لم يكن دكانا حقيقيا ، كان مجرد نافذة فتحت على الحجرة الداخلية لأحد المنازل ، امتلأت الأرفف وبقى مرعى واقفا على حافة النافذة ، أمامه ميزان مغشوش يزن به البضائع بواسطة قطع الأحجار ، كان آدم لايزوره إلا نادرا من أجل «باكو» من الشاى أوقرطاس من السكر أو عندما يغلبه الشوق إلى قطعة من «الحلاوة الطحينية» وكان يدفع ثمنها بالكاد ،ولكنه الآن يقف أمامه فى ثقة ، تطلع

إليه مرعى بعينيه الكليلتين دون أن يستطيع التعرف عليه ، لم يتذكر فيه الأجير الذى كان يتوسل إليه أن يعطيه بالأجل ، تأمل آدم الارفف والعلب الملونة الكبيرة والصغيرة بما عليها صور لأبقار وأسماك والزجاجات التى تمتلئ بسوائل غريبة ، أدخل آدم رأسه من خلال النافذة كى يرى اكثر ، صاح مرعى فى غيظ :

– ماذا تفعل .. هذه ليست زريبة .. ارجع رأسك ..

ثم تعرف عليه وقبل ان يواصل سبه فتح آدم قبضته والقى إليه بالورقة الملونة وهو يقول :

– أريد أن اشترى بكل هذه

فوجئ مرعى بمنظر الورقة ، تناولها وقلبها ليتأكد من انها ليست مزيفة ، ونظر إلى الناس الواقفين ثم وضعها فى الدرج بسرعة وتغيرت لهجته فجاة وهو يقول :

– اطلب ماتريد ..

اشار آدم إلى رف كان ممتلئا بصفوف من العلب الحمراء مرسوم عليها رؤوس أبقار وهتف :

– أريد هذه ..

أسرع مرعى وناوله واحدة ، أمسكها آدم وقلبها فى يده بحيرة ، تناولها مرعى مرة اخرى وهو يقول له فى حماس :

– سوف افتحها لك .

أمسك العلبة واخرج المفتاح الصغير الملتصق بظهرها وازاح الورقة

الحمراء ثم بدأ يزيح الغطاء المعدنى ، ظهرت محتويات العلبة ، قطعة من نسائر اللحم الأحمر مغطاة بطبقة من الدهن الأصفر المتوهج ، امسكها آدم بين يديه ، أمنية قديمة تحققت ، ليست وليدة جوع هذه اللحظة ولكنها وليدة لحظات الجوع الدائم ، منظر اللحم كان رائعا ، قطعة مربعة ، مستوية الشكل ، لها ذات لون العلبة التى نزعت عنها ، قضمها آدم بعنف فسمع تاوهات الناس كأنهم يشاركونه فى تناول للعلبة السحرية ، كأنه يحقق لهم حلما عزيز المنال وهو يلتهم طعام السادة بهذه البساطة وتلك الرغبة ،

احس آدم بالدهن وهو يملأ حلقه المتشقق وقطع اللحم المفتت تذوب على لسانه وتنزلق إلى حلقه بنعومة دون حاجة للمضغ ، رفع رأسه وواجه عيونهم ورأى اختلاجات اعناقهم ، مسح بأصبعه آخر قطعة من اللحم وبدأ يشعر بالأسف لأنها كانت صغيرة اكثر مما ينبغى ، رأى فى قاعها انعكاس صورته ، اشعث ، ملطخ بالطين ، ملئ بالجروح ، ولكنه شبعان ، ألقى بالعلبة على الأرض وتجشأ وهو يتحسس بطنه وبدت على الجميع مشاعر الحسد والارتياح ، التفت إلى مرعى وهو يقول :

– علبة أخرى ..وشاى .. وسكر .. وجبن .. وسجائر لف .. ضع كل هذه الأشياء فى لفة واحدة .

واسرع مرعى ينفذ المطلوب ويربط اللفة فى أحكام وحملها آدم تحت إبطه وواصل السير والجميع خلفه ، توقف عند راتق النعال واشترى واحدا قديما ، ثم اشترى جلبابا آخر ، نفض الطين من على قدميه ولبس النعل ، وتوارى حتى ارتدى الجلباب واصبح بحق شخصا آخر ، رأوه وقد غدا مختلفا ، مشيته قد اتزنت ، وصدره عاد إلى الارتفاع ، كذلك ازدادت

اللفة التى تحت ذراعه بعد ان اضاف إليها ارغفة الخبز ، سار منتفخا ، يسمع غمغماتهم ، ويرى عيون النسوة المبحلقة من خلف النوافذ ومن فوق الأسطح ، لابد أنهن جميعا قد رأين عورته وازدادت قيمته فى عيونهن .

انتهى كل شئ ، عليه الآن ان يستدير ويغادر النجع ، تكفى هذه الجولة، وتكفى القروش التى ألقاها إلى مرعى ، ويكفى ان جروحه كلها قد خفت والتأمت فجاة ، وعليه الآن أن يعود الى جزيرته قبل ان يصل خبره إلى العمدة ويقبل عليه الخفر ، والأهم من ذلك ان يذهب إلى غزالة بعد ان يتخلص من هذا الجمع الحاشد .

صرخ فيهم بصوت أجش : انصرفوا .. لايوجد مايدعو للفرجة .

غمغموا معترضين ، لوحوا بأيديهم ، ولكن حين شاهدوه متجها فى طريق العودة أدركوا ان الفرجة قد انتهت حقا ، بدأوا ينصرفون ، تركوه يجتاز الدروب وحده وظل هو يتلفت خلفه حتى وصل إلى مدخل النجع واندس بين الأخصاص .

اخيرا تأتى غزالة إليه ، تقف فى مواجهته وازاحت الطين من على وجهه ومررت شعره الأشعث بين أصابعها وتلمست جروحه وهمست باسمه، قال فى لهفة :

– انا فى حاجة إليك يا غزالة .

جلسا معا ، ولكن رأس أبيها أطلت من خلف باب الخص ، كان مايزال مريضا ، عاجزا عن السير ولكنه لم يكن يكف عن الزحف وعن مضايقته بلسانه اللاذع ، هتف به :

– ليس قبل ان أموت ياآدم ..

نهض آدم ، مال نحوه وهو يقول فى صوت قوى :

– ألم تسمع ، انا الآن املك جزيرة ، أصبحت صاحب طين ، استطيع ان أخذك انت وغزالة للعيش معى .

قال الرجل فى سخرية :

– هذا اذا استطعت الاحتفاظ بها .. ربما عدت الآن فوجدتهم عليها .

تذكر المراة ، والعمدة ، وابن معتوقة ، كل شئ قد أصبح معقدا ، نظرت إليه غزالة بعيون قلقة ، قالت وهى تحاول ان تتغلب على مخاوف أبيها :

– سوف أت معك ياآدم .

هز الأب راسه فى سخرية وهو يقول :

– ستغرقان معا فى النهر .

قال آدم : سوف أجهز كل شئ وبعد ذلك آت لأخذكما ، لن يستطيع أحد أن ينتزع الجزيرة منى .

ولكن صوتا أجش جاء من خلف الأخصاص :

– بل سننتزع حياتك يابن الحرام ..

كان هناك ثلاثة من الخفر يسدون عليه الطريق ، يتقدمون نحوه ويسدون عليه منافذ الهرب ، قبض على عصاه ولم يكن الهرب مجدياً ، لم تكن فى قدميه طاقة على الجرى ، قال كبير الخفر وهو يعدل بندقيته :

– انزل عصاك ، لن تجدى المقاومة ، معنا أوامر من العمدة بضربك فوراً .

اسرعت غزالة ووقف بجانبه وصاح خفير آخر :

– ابعدى يا بنت ..

قال آدم وهو يبعدها :

– اتركينى ياغزالة ..

التفت إليهم وهو يحاول ان يخفى رجفته الداخلية ، صاح :

– ماذا تريد منى ؟ ..

– لسنا نحن الذين نريد .. العمدة لايريد أقل من رأسك ..

– إنها جزيرتى ، ليس لأحد الحق فيها غيرى ..

– قل هذا للعمدة .. للحكومة ..

بدأ الناس يظهرون ، يتسللون من خلف الأخصاص بعيون مفزوعة ، كانوا يدركون انهم سوف يكونون شهوداً لمذبحة ، قال آدم :

– لن اذهب معكم إلى أى مكان .

اداروا بنادقهم ، وجهوا فوهاتهم الثلاثة نحو صدره ، قال أحدهم :

– انت الجانى على نفسك .

هل يمكن أن يقتلوه أمام هؤلاء الناس ، إذا فعلوا فلن يشهد أحد منهم على ذلك ، قال فى آخر دفقة من الشجاعة :

خذونى إذن إلى العمدة جثة هامدة ..

قال كبيرهم : لامانع عندنا برغم انك لاتساوى ثمن الرصاص .

ورفعوا ترباس الأمان ، كانوا جادين ، بدأ آدم يتراجع ، لو انه فقط يستطيع ان يصل إلى هؤلاء المشاهدين العزل وان يختبئ بينهم ، ولكن الخفر مدوا أفواه البنادق حتى لامست صدره ، نظر إلى وجوههم فرأى عيونهم الميتة ، بدأت غزالة تبكى فى نشيج متواصل .

ثم صاح صوت من خلف الجميع ، صوت حطم الصمت المتواطئ ، ظهر خمسة رجال فى دفعة واحدة ، كان الجميع يعرفونهم جيداً ، إنهم أولاد المرسى الذى عمل طوال عمره أجيرا فى أرضهم وولد فى زرائبهم ، جاءوا بقامتهم الفارعة وعمامتهم البيضاء الشاهقة ، اقتحموا الصفوف ، دخلوا بينه وبين الخفر .

تردد الخفر ، رفعوا البنادق وانزلوها ، قال جابر اكبر الأبناء :

– المرسى الكبير يريده .

صاح أحد الخفر :

– اخرجوا من الموضوع ، إنه لم يعد أجيراً عندكم ،العمدة أمرنا بالقبض عليه .

صاح جابر بقوة أكثر فى وجهه :

– قلت لك المرسى الكبير يريده ، اذهب واخبر العمدة بذلك .

قال كبير الخفر وقد بدأ يحس بالهزيمة :

– هذا لايليق .. قل للمرسى أن ياتى ويتفاهم مع العمدة .

رد جابر فى جفاء :

– المرسى لا يتفاهم مع أحد .. اذهبوا ..

أرخى الخفر بنادقهم وشواربهم ، أعادوا « الترابيس» إلى مواضعها ، ثم اعادوا البنادق إلى ظهورهم ، ترددوا قليلاً ولكن الأجساد الخمسة كانت واقفة كالجدار بينهم وبين آدم ، أدركوا ان المسألة قد دخلت فى صراع الكبار الذى لاطاقة لهم به ، تراجعوا ، ثم أسرعوا بالانسحاب .

التفت جابر إلى آدم وقال له بذات اللهجة الآمرة :

– هيا معنا ..

كان آدم مثل الفأر ، يخرج من مصيدة ليقع فى أخرى ، عاد جابر يقول:

– المرسى الكبير يريد ان يراك .

لم يكن قد رآه فى حياته ، الجميع يعرفون بوجوده ، يحسون بظله المهيمن على كل شئ على الأرض والنخيل والناس والبيوت ، لم يكن يخرج ، الجميع يجب أن يذهبوا إليه ، يصعدون إلى مجلسه ويقبلون يديه، ويجلسون أمامه مرتجفين ، حتى عندما مات ابنه الأكبر « المتولى » وذهب الجميع ومعهم آدم للعزاء لم يقابلوه . قابلوا الأبناء الصغار وسمعوا القرآن وانصرفوا دون ان يظهر المرسى ..

ترى لماذا يريده .. هل يطمع هو أيضا فى جزيرته ؟ ..

بدأوا يسيرون فأضطر ان يسير فى وسطهم ، نظرت إليه غزالة وهو يبتعد بعيون دامعة ، ترى ماهو الأسهل .. مقابلة العمدة أو المرسى الكبير ؟ ، أوسع الناس لهم طريقا ولم يجرو أحد منهم على متابعتهم ، ظل ممسكا بلفة الطعام تحت إبطه ، هبطوا فوق المنحدر الذى فى طرف النجع

ساروا بين ازقة ضيقة فى الأسوار الطينية ، متاهة متداخلة ، ظلوا صامتين، واحد فى الأمام واثنان بجانبة واثنان فى الخلف ، يختلط صوت اقدامهم مع دبيب عصيهم فوق الأرض .

وصلوا إلى قاع المنحدر ، كان النهر قد تشعب وصنع مخاضات تشبه اصابع اليد ، تجمع فى وسطها قطعاً متفرقة من الأرض والأحجار الجرانيتية المنقوش عليها الطلاسم ، ظلت المخاضة تتشكل تحت اقدامهم وهم يتقافزون عليها ، ومن بعيد بدت اعمدة حجرية منتصبة ، اتجهوا نحو سور ممتد خلفها ، بدت غابة كثيفة أخرى من النخيل ، كانوا يتجهون إلى بستان البلح الكبير الذى يخص عائلة المرسى والذى لايجرؤ أحد على الاقتراب منه ، لم يدخله أحد من أهل النجع ، كل من يدخله هم عمال أجراء يأتون من نجوع وقرى نائية ، يقطعون الأسبطة ويجمعون البلح ثم يرحلون .

اقتربوا من السور ، وانفتحت البوابة الخشبية كأنما كانوا يتوقعون قدومهم ، أصدرت المفاصل الصدئه أصواتاً كالنحيب ، ارتعد قلب آدم ، كل شئ تغير فجاة بعد أن ظهرت هذه الجزيرة .

العمدة يريد قتله والمرسى الكبير يقوده إلى معقله ، أى مصير ينتظره فى هذا المكان تحت النخل المتكاثف ، أحس بلكزة من الخلف تدفعه إلى الدخول ، البستان رطب ، الشمس لا تنفذ إلى أسفله ، هواء ثقيل مفعم برائحة حبوب اللقاح الطائرة والبلح العطن والفسائل المتفرعة دون تشذيب ، ممر ضيق بين جذوع النخل ، تتشابك فوقه الأسبطة ولايكف البلح عن التساقط ، رجال معلقون فوق الجذوع يحدقون فيه دون صعود أو هبوط .

سمع من خلف أجمة النخل حركة خافتة ، لمح نسوة يرتدين السواد ويمسكن المقشات المصنوعة من السعف ، وجوههن كابية وممصوصة ، يكنسن الأرض ، ويخلطن التراب بالنوى ، وكل شئ يبدو مظلماً ، ثقيل الهواء ، وبلا نهاية .

وصلوا إلى ساحة واسعة يحيط بها النخيل من كل جانب أسراب كثيفة من الذباب والنحل تطن وتدور فى صوت متواصل ، تصنع هالة داكنة حوله «الدكة» المصنوعة من الجريد والخوص المجدول الذى يجلس عليها كهل يرتدى البياض ، أدرك آدم ان هذا هو المرسى الكبير برغم انه لم يكن قد رآه من قبل ، توقف مبهوراً ، الرجل كان عجوزاً لدرجة الموت ، يقبض على عصا مقوسة ويستند إليها كأنه غير قادر على الاتكاء إلى الخلف .

الساحة الواسعة أمامه مغطاة تماماً بحبات البلح ، طبقات لزجة يختلط فيها اللون الأصفر والأحمر والأسود ، متروك تحت الشمس حتى يتحلل ثم جمع كى يصنع منه العرقى الذى يدير أعتى الرؤوس ، وقف آدم مبهوراً برؤية الشيخ لايدرى كيف يصل إليه عبر هذا البحر اللزج ، ولكنهم دفعوه فى ظهره ، غاص بقدميه التى ساخت فى اللزوجة وأخذ النوى يغزه ، حركها بصعوبة متقدماً نحوه حتى بدأ يسمع صوت شهقاته المتتابعة.

تذكر آدم حكاية سيدنا سليمان عندمامات مستنداً إلى عصاه وهو يراقب الجن . ولكن المرسى كان حياً ، ظل آدم يواصل الاقتراب منه دون أن يشعر العجوز بوجوده ، ماذا يفعل .. هل يبقى واقفاً أم يجلس أمامه وسط البلح ، ظل الصمت سائداً ، ثقيلاً ، مشحوناً بانفاس العجوز وحفيف النخيل ، ثم تقلصت يدا المرسى على العصا ورفع رأسه ببطء رأى

آدم وجهه الذى تداخلت فيه التجاعيد مع الشعيرات البيض وعلامات الزمن ، ولم يدر إن كان العجوز يراه حقاً أم لا ، ولكنه سمع صوته كأنه يخرج من تجويف جب عميق :

– لقد سألت نفسى طويلا .. ابن من انت بالضبط ؟ اى الرجال وضع بذرتك ، انا أعرف كل أولادى ولاأستبعد عنهم فعل أى شئ . ربما كنت انا نفسى ، فالنزوات اكثر من ان أستطيع تذكرها ، من الغريب ان تظهر لنا فجأة ملطخا بالروث .. ابن من انت ؟

ظل آدم صامتا . لا يدرى ماذا يريد الرجل ، ظل المرسى يحدق فيه بعينيه ، كانتا هما الشئ الوحيد الذى احتفظ بقوته ونفاذيته بعد أن أصاب الوهن كل شئ . عاد يقو ل :

– كلا ، لست منا ، لو كان الأمر كذلك لشممت رائحة جلدك وعرفتك، ربما ضاجعت أمك أحد الحمير داخل الزريبة وتخيلت انه واحد من السادة ، انت لاشئ ، حتى الآن انت لاشئ برغم الجزيرة التى تعتقد انك تملكها .

صمت قليلاً ليسترد انفاسه وتلفت حوله ثم حدق فى آدم وقال فى صوت خفيض :

– أهى عندك ..

ولم يدر آدم كيف يجيب ، بلع ريقه وأحس بطعم الشاى واللحم والجوع، ثم قال :

– ماذا تقصد ياأبويا المرسى .. ؟ ..

رفع المرسى عصاه ودقها فى الأرض وهتف فى صوت أجش :

– هل جئت لتحاورنى يا ولد ، هل تعتقد اننى صغير بحيث يمكن ان

تخدعنى أو تلف وتدور على ..

اريد وجهه بالغضب ، ونظر آدم للخلف فوجد الرجال يحدقون فيه شذرا ، قال آدم :

– العفو ياأبويا المرسى ، انا خدام تراب رجليك ، إذا كنت تريد الجزيرة فهى لك .

لم يخف غضب المرسى وقال فى حدة :

– الشط الغربى كله ملكى وتحدثنى عن قطعة أرض لم تمتلكها بعد ياابن الحمار ..

لافائدة .. كان المرسى الكبير يتحدث عن المرأة ، كانت تنتمى إليهم ، لم تكذب حين قالت إنها من سادة النجع ، ولكن كيف ورطته وخدعته .. قال المرسى :

– انا لاتهمنى الجزيرة .. إذا كنت تريدها فهى لك .. اما إذا كنت تريد شيئاً آخر فسوف تخسر كل شئ ..

اقعى آدم تحت قدميه :

– انا طوع امرك يا أبويا المرسى ..

– سوف أحميك من العمدة ، والحكومة ، ومن الجن الازرق . كان فى يد آدم بقايا الجنيهات التى أعطتها له ، وتحت إبطه الطعام الذى اشتراه لها، وعلى جسده علامات الذين حاولوا قتله قبل ان تنقذه هى ، قال آدم :

– لم اكن أعرف من هى ياأبويا المرسى .. وحتى الآن لا اعرف ..

– لم يكن يجب ان تعرف ، لم يكن يجب ان يعرف أحد اى شئ ،

ولكنها هربت إليك قبل ان نوقع عليها العقاب .

– ماذا فعلت ؟ ..

– ليس هذا من شأنك .. ولكننى مضطر لأقول لك كى تساعدنا فى مهمتنا ولا تحاول هى ان تقنعك بأن تبقيها عندك ، لو بقيت معك على الجزيرة فسوف تضع السم فى طعامك كما وضعته لزوجها .

– زوجها ..

– المتولى .. ابنى الأكبر .. ألم تحضر جنازته ..

بدأ الرجال يقتربون ، يحيطون بهما من كل ناحية ، يجلسون على أطراف بحر البلح اللزج ، والنخل يطن فى جنون ويلسع فى قسوة ، عيونهم تبرق ، عيون المرسى الكبير تكاد تخترق بجسده ، ترك العصا وحدق بعيدا عبر فراغ بستان النخيل ، ينظر إلى افق الزمن الممتد ويستعيد من ذاكرته الواهنة كل التفاصيل ثم يقول بصوت خافت لا يسمعه سوى أدم فقط :

– لم يطلب منى المتولى أن يتزوجها ، جاء بها إلى البيت فجأة وفرضت هى وجودها علينا منذ اللحظة الأولى ، كان فيها شئ غريب ، حتى ست البيت أم المتولى توارت من أمامها ، والنساء الصغيرات تضاءلن وأصبحت هى كل شئ ،

قلت له من اين جئت بها يا متولى ؟ ، قال فى لهجة لا أدرى إن كان يسخر بها منى أم يتحدث جاداً : وجدتها على حافة الترعة وكانت خارجة لتوها من الماء ، ثم قال إنه وجدها مسجونة عند الغجر وإنها بنت أصول ثم قال إنها قريبة لنا وسرد سلسلة طويلة من الأنساب الزائفة .. كنا

نسمعها تغنى وتضحك وتبكى فى آن واحد ، وعندما تدعو المتولى باسمه كان صوتها يرسل الرعشة فى البيت كله .. كان المتولى المسكين يذوى بين يديها ، كل يوم يزداد لونه شحوباً ، وحين سألته قال لى : هذه المرأة ستقتلنى ياأبى قلت له اطردها فلم يفعل ، قلت له تجنب فراشها فلم يفعل ، قلت له لا تأكل معها فى طبق واحد فلم يفعل حتى وقع المقدر والمكتوب .

صمت المرسى الكبير ، ومن الغريب انه قال كل هذه الكلمات فى لهجة متدفقة دون أن يلتقط أنفاسه أو يصاب باللهاث ، عاد يحدق فى أدم وحرك أصبعه فى وجهه مهدداً :

- هذا سر آل المرسى يا أدم ، قلت لك فقط لتدرك خطورة الأفعى التى ترقد على جزيرتك ، إنها تتحدانا ، تريد فضيحتنا وسط النجع ، نحن فقط نريد أن نعيدها إلى الدار ، سوف نقتلها فى هدوء وندفنها فى صمت

عاد أدم يتلفت حوله كالفأر المذعور ، هل يمكنه أن يفعل ذلك أن يسلمها لهم فريسة سهلة ، لابد أنها تستحق ذلك مادامت قد قتلت زوجها ، كان الرجال مازالوا يحدقون فيه بعيونهم الصلبة الباردة ، قال المرسى :

- الجزيرة لك ، وسنعطيك نقوداً أيضاً ، فقط خذ منها السلاح وسلمها لنا فى هدوء ولا تسأل عن مصيرها بعد ذلك ..

ازدادوا اقترابا ، أحس بأنفاسهم الساخنة وهى تتردد عبر صدورهم المحتقنة ، لن يستطيع أن يقول لهم لا ، لو فعل ذلك فلن يغادر هذا البستان حياً . لم يكن أمامه إلا أن يسلمها لهم ، أن يبيعها وأن يتذكر جيدا انه لا وقت للندم .. صرخ المرسى :

- تكلم يا ابن الحمار ، قل شيئاً .

احسن بطعم الشاى مراً ، واللحم مالحاً ، والجوع كافراً ، قال :

- متى تريدونها ؟

فجأة تكلم الجابر :

- اليوم ..الآن ..

رفع المرسى رأسه وهو يقرر :

- بعد أن يحل الظلام ، كفانا فضائح ، لا أريد أن يشعر أهل النجع .

ثم لوح بأصبعه فى وجه أدم :

ولكن جردها من سلاحها أولا ، لسنا خائفين ولكن العيار الذى لا يصيب يدوى ويحدث من الفضائح ما يكفى .. هل أنت فاهم ؟ ..

أوما أدم برأسه ، قال المرسى مهدداً :

- لو تراجعت عن هذا الاتفاق فسوف أدفنكما معا فى الجزيرة.

وأشار له أخيرا أن ينصرف ، نهض أدم متوجسا ، ظلوا جالسين دون حراك ، استدار وبدأ يعود خائضاً فى بحر البلح ، يلاحقه طنين الذباب والنحل كأنه يردد ذات كلمات الوعيد والإغراء ، سار وسط ممر النخيل ، شاهد النسوة اللاتى يرتدين السواد يحدقن فيه بعيون مطفأة ، والرجال معلقون على جذوع النخل ، وخرج من البلح ليغوص فى التراب بخطو متثاقل ، اقترب من باب البستان دون أن يصدق أنه على وشك الخروج وحيداًوعلى قيد الحياة ، ظل يتلفت فى فزع وهو يجتاز مخاضة المياه،

جلس فوق أحد الأحجار المنقوشة وأنزل قدميه فى الماء ليتخلص من

أثر البلح والطين ، بعثت فيه البرودة بعضاً من الهدوء ، ارتاحت أنفاسه اللاهثة المذعورة وعاد النعل متألقاً ونظيفاً كما كان ، سار وحيداً في الحوارى الجانبية الضيقة ، نفذ إلى الشاطئ المتعرج وبدت الجزيرة أمام عينيه أخيراً ، مازالت باقية ، هل أصبحت أكبر حجماً أم أن هذه هي المرة الأولى التى يتأملها فيها من الشاطئ ، جسد ممتد ومسترخ ، أيهما أكثر إثارة ، طين الجزيرة البارد ، أم لحم المرأة الحار الذى أثار شهوة الجميع وأثار رعبهم حتى المرسى الكبير ؟..

كان مغاورى جالساً متقرفصاً فى قاع القارب ، أنظاره مسمرة على الجزيرة حتى أنه لم يحس باقتراب آدم على الشاطئ ، كانت هناك كومة من أغصان الشجر ، من الواضح أنه جمعها ثم لم يستطع نقلها ، ناداه آدم، التفت إليه وعلى وجهه نظرة غريبة ، قال فى صوت مرتجف :

– أى شيطان تركته خلفك على الجزيرة .

– ماذا حدث ؟ ..

– حاولت أن أنقل هذه الأغصان فأوشكت أن أقتل ، هناك من أطلق النار على دون أن أراه ، هل خاويت الجن بهذه السرعة .

لم يجبه آدم ، وضع لفة الطعام ثم أخذ ينقل الأغصان وصاح مغاورى مذعوراً :

– لن أقترب من هذه الجزيرة حتى أعرف ماذا يحدث بالضبط ؟ ألقى إليه آدم ببعض النقود دون أن يأبه بالرد عليه ، واصل نقل الأغصان واستوى على القارب وقال له آمراً :

– سوف تحضر الطعام كلما طلبت منك . ولا تسأل عن شئ .

أمسك مغاورى النقود فتشجع قليلاً ، بدأ يجدف فى حذر إلى الجزيرة وينفذ وسط الممر الضيق بين تشابكات ورد النيل ، استوى القارب بالقرب من الحافة ونقل الأغصان بمفرده ، لم يدع المغاورى يلمس الجزيرة ولم ينس لفافة الطعام وقال له فى حزم :

– مع السلامة يامغاورى .

وظل واقفاًحتى شاهده يجدف مبتعداً ، خائفاً ، لا يجرؤ على الالتفات ، سار أدم مسرعا إلى حيث توجد كومة الأوراق ، وجدها هنا راقدة ، نصف حية ، يداها متشنجات على البندقية ، هتف يناديها باسمها ، هزها ، استجاب جسدها استجابة واهنة ، هتف :

– أحضرت لك طعاما .. أنهضى وكلى ..

لم تتحرك ، أنهضها ، وجهها ساخن ، والرعدة تجتاح جسدها ، انهضها ، أسندها إلى كومة الأوراق والطين ، فمها جاف ، وجهها المتقع يشع مع ذلك بشهوة غريبة ، نهض سريعاً وأحضر بعض الماء فى داخل ورقة خضراء ، رشها على وجهها ، بلل قطعة من الخبز واخذ يدسها فى فمها وهو يصيح :

امضغى .. أبلعى .. أنقذى نفسك ..

كلما سقطت قطعة من الخبز كان يعيدها إلى فمها فى إصرار ، دلك وجهها بالماء ثم رقبتها وكتفيها ، أ حس برغبة غريبة تجتاح جسده ، كانت لمسات اللحم الحى المرتجف توقظ داخله كل مكامن الجوع ، ود لو أن رغبته تنقل إليه بعثاً جديداً ، كان جسدها ينتفض تحت ملمس يديه ، حركت شفتيها وأسنانها ولا كت الخبز المبلل ، تنهد فى ارتياح ، وغمس

قطعة أخرى فى الماء ووضعها فى فمها ، سعلت وبصقت كل شئ فى وجهه ، وبرغم ذلك واصل جسدها الانتفاض بالحياة ، عاد يبلل الخبز ويضعه فى فهما ، وفكاها يتحركان ، بدات تلوك وتمضع وتبتلع ، كأنها طفل صغير يمتص رضعته الأولى مغمض العينين ، فتح أدم علبة اللحم الحمراء وأزاح صورة البقرة ، جرح اصبعه ولكنه واصل الفتح حتى ازاح الغطاء المعدنى ، تناول قطع اللحم على اصبعه وأخذ يدسه فى فمها أيضا ، اصبحت أكثر أستجابة برغم أنها لم تفتح عينيها ولم تتوقف عن الرعدة ، واصلت الأكل ، يتحرك فكاها ثم يتوقفان بعد أن تفرغ وتفتح فمها فتحة صغيرة متلهفة فى انتظار المزيد ..

فتحت عينيها أخيراً ، حدقت فيه باستغراب كأنها تحاول التعرف عليه، ثم قالت فى إنهاك :

– عدت أخيراً ..

قال فى فرح : أحضرت لك طعاماً ..

قالت : لكم أشعر بالبرد .

ألقى الجلباب القديم الملئ بالطين على كتفيها ، توقفت عن الارتعاد وواصل إطعامها ، نظرت إليه وهى تمضع فى سكون ، كانت تريده أن يتكلم فلم يتكلم ، قالت :

– رائحة البلح تفوح منك .

قالت فى سرعة :

– أكلت بلحاً فى النجع .

وماذا أيضاً ..

ارتعدت يده رغماً عنه ، حدقت فيه فى ترقب ، قال مراوغاً :

- اشتريت طعاماً ، وطاردنى الخفر فاختبات فى الأخصاص حتى جئت.

أدرك أنها تعرف أنه يكذب ، وأنها لم تعطه النقود ولم تجعله ينزل إلى النجع إلا ليذهب إليهم ، ألقى ببقية الخبز ونهض واقفاً ، كانت الشمس قد هدأت والريح قد بردت ، قال :

- علينا أن نبنى خصاً قبل أن يقبل الليل .

قالت فى صوت حاد :

- أهذا كل ما لديك .. ألم تذهب إليهم .. ؟ ..

كانت تحاصره وترى آثار البلح فى ثيابه .. قال:

- من .. ؟ ..

- عائلة المرسى .. المرسى الكبير ..

- طوال عمرى وأنا أجير عندهم ولم أراه قط .

هل تساوى هذه الحفنة من الطين كل هذا الثمن ؟ .. هل هى حقاً قاتلة ، هل يمكن أن تشرع بندقيتها وتقتله فى هذه اللحظة ، لقد أنقذت حياته مرتين ، من ابن معتوقة ، ومن الجوع فكيف يسلمها لهم هكذا ؟ .

تشاغل بنقل الأغصان وظلت هى جالسة مكتومة تنظر إليه فى صمت قاس ، البندقية بجانبها ، بجوار أصابعها ، كيف يستطيع انتزاعها .. ماذا لو صرخت وانشبت أظافرها فى وجهه ، هل يمكن أن يسلمها لهم ببساطة .. بدون تردد .. بلا أى إحساس بالذنب ؟ ..

جمع الأوراق ، وضع عليه الطين وسكب الماء ، وصنع عجينة سميكة سوداء ، خلع الجلباب ووقف أمامها بصدره العارى وبالسروال ، لم تكن تنظر إليه ، كانت تحدق فى الشاطئ البعيد ، تفكر فى المصير الذى ينتظرها عندما يحل الظلام ، غاص فى الطين وبدأ يقيم الجدار الأولى ، وضع الأغصان وأعواد البوص ، غرسها فى الأرض ثم بدأ يغطيها بالطين ، ألقى عليها نظرات خاطفة ، تراه ولا تراه ، لا ترى عريه ، ولكن تبحث خلفه عن الرجل الذى باع .

ارتفع الجدار الأول وبدأ يعمل فى الجدار الثانى ، لمح يدها بجوار البندقية ، توشك أن ترفعها لتحسم لحظة الشك القاتلة ، كان هناك طائر يحوم ، والنهر ساج ولا أحد على صفحته ، لا أحد على الشاطئ ، والصمت يصنع جداراً أشد كثافة من جدران الطين التى يحاول الاختباء خلفها ، لاحظ ، ولاحظت هى أيضا فى ذات الوقت أنه يبنى خصاً ضيقاً ، مكمناً من الطين لا يسع إلا فرداً واحداً ، فعل ذلك دون أن يفكر ، واتسعت عيناها وأيقنت بما توقعته ، رفعت البندقية ببطء ، واستدار هو بذات البطء واختفى خلف الجدار الطينى الزلق ، كان خائفاً منها ، من نظرة عينيها أكثر من خوفه من أصبعها الموضوعة على الزناد ، همس لنفسه فى ضيق ، متى يقبل الظلام .. ومتى يأتون ؟ ..

سمع صوتها وهى تقول فى مرارة :

– خص هذا أو مقبرة ، لمن أعددتها .. لك .. أو لجثتى ..

كانت تمسك البندقية ، وبرغم أنها لم تكن توجهها نحوه إلا أن التهديد كان واضحا ، استدارة بسيطة وتصبح فى مواجهة صدره ، بدأ يهدم الجدار ويوسع المساحة ، عادت تقول :

على أى شئ اتفقت أنت والمرسى الكبير .. ؟ ..

استدارت الماسورة وأصبحت فى مواجهته بالفعل ، قال أدم :

– أبعدى السلاح ..

قالت من بين أسنانها :

– ليس قبل أن أعرف .

– لن تستفيدى شيئاً من قتلى ..

– على الأقل لن يوجد من يبيعنى ..

تطلع حوله ، هذا الصمت الثقيل يموت النهار فيه وتتجمع السحب وتبرد الريح ولا يوجد شاهد واحد يمنعها من قتله .. قال فجأة :

– هل قتلتيه حقاً ؟ ..

– المرسى الكبير قال لك ذلك ؟ ..

– أجل ..

– هل صدقته ؟ ..

– لا أدرى ..

– ومع ذلك قررت أن تسلمنى إليهم ..

صاح أدم محتاراً وهو يلقى قطعة الطين من يده :

– أنا خائف ..

– منهم .. أو منى ؟!

– أنا خائف من الجميع ، ليس لى شأن بكل ما حدث ولا أريد أن يكون

لى شأن ، انا مجرد أجير بسيط لا أريد سوى هذه القطعة الصغيرة من الأرض .

صمتت قليلاً ولكنها لم تحول البندقية عنه .. ثم قالت :

– وإذا قلت إننى لم أقتله .. هل تصدقنى ، إذا أقسمت لك إننى لم أقتله هل تسلمنى لهم برغم ذلك .. ؟ ..

ماذا يقول لها ، تسلل الطين من يده إلى داخله قال :

– هذا ليس شأنى .. شأنك أنت وآل المرسى .

وأدار لها ظهره ، تركها تقرر ماذا تفعل ، تطلق النار أو تتحمل مرارة الانتظار والترقب ، وظل الصمت سائداً ، لم يكن هناك إلا صوت انزلاق الطين على القش وحفيف الريح على الماء ، سمعها وهى تتمتم :

– حتى ولو كنت قتلته .. يكفى أننى أنقذتك من القتل .

دبت كلماتها باردة داخل عروقه ، كان يقيم الجدار الثالث ، هل يستطيع الآن أن يختبئ بعيداً عن عينيها ، هذه المرارة فى صوتها هل تعنى أنها يمكن أن تكون بريئة .. ولكن حتى لو كان الأمر كذلك ، ماذا فى يده أن يفعل ؟ ماداموا قد قرروا أن يأخذوها فسوف يفعلون .. دوره الوحيد أن يتم ذلك سراً ودون ضجة ،

جلس متقرفصاً وسط الجدران اللزجة ، خائفاً من أن يلمسها ، خائفاً من أن تخترقها رصاصة المرأة ، وبدأ المساء يهبط وظل الشاطئ خالياً ، متى سيقبلون وكيف سينتزع سلاحها وقد انتبهت إلى كل شئ ؟

أحس بصوت خافت ، رفع رأسه فوجدها واقفة أمامه ، كانت ترتجف من البرد والوحدة ، وجد نفسه ينزاح ، يوسع لها مكاناً بحيث لا تلمس هى أيضا الجدار ، وضعت البندقية أمامها ثم جلست ملتصقة به تقريباً ،

أحس برعدتها وهى تسرى من أوصالها إلى أوصاله ، ود لو يستطيع أن يمد ذراعه ويحيطها به ، ود لو تكون غزالة ، ولكنها كانت بعيدة ، ظلا صامتين، لم يتوقف جسدها عن الارتجاف، ضعيفة لدرجة لا تليق بقاتلة ، كل شئ كان يرتجف ، ذرات الظلام ، وجنادب الليل ..

بدأت « وردة» فى الحديث ، تحدث نفسها ، يختلط صوتها بكل أصوات الليل ووشيش النهر ، كأنها كانت تتحدث عن امرأة أخرى ، تسكن فى داخلها ، امرأة كانت يوماً ما صغيرة وضعيفة ومرتجفة ، كانت مثله لا يراها أحد ، ولا يشعر أحد بوجودها ، كانت خارج الزرائب ، وسط النسوة ، أسياد الدار ، ضائعة بين أرجلهن ، ثم اكتشف آل المرسى فجأة أنها كبرت وأنها تملك أرضاً .. وأنها تمت لهم أيضا بصلة القرابة .. هتف آدم :

– أنت من أقارب آل المرسى ، ألم يأت بك المتولى من الخارج ؟

– كلا بالطبع .. هذه أول أكذوبة .

كانت فى البيت مثل خادمة لا يأبه بها أحد ، تنمو تحت ملابسها دون أن يلاحظها أحد ، يكبر جسدها فى خفية وسرية ، يستدير ويتكون ، كذلك لم يلحظ أحد أرضها التى ورثتها عن أمها المرسية والتى ظلت داخلة فى زمام أرض المرسى الكبير ، وهكذا نشأت تملك جسداً ولا يراه أحد ، وأرضاً لا يعرف أحد حدودها ، كانت ترى أولاد المرسى وهم يتشاجرون فى عنف ويتضاحكون فى خشونة ، وينتهزون الفرصة كى يقفزوا على أية خادمة ، لم تتصور قط أن تكون لواحد منهم ، خاصة «المتولى» الأكبر الذى كان يبدو متنائياً بعيداً دائم الغضب ، لم يقترب قط من أية خادمة ، كانت تخاف منه أكثر مما تخاف من دبيب عصا المرسى الكبير فى

منتصف الدار ، كانت ضائعة وسط عالم لا يعرف درجة قرابتها له بالضبط ، جسدها ينمو دون هدف ، وسوف يذبل دون غاية .

وفى ذات يوم رآها المرسى الكبير ، رآها كما يجب أن ترى ، عارية ، هل حدث هذا بالمصادفة ؟ أم أنها هى التى قررت ذلك ، وإذا كانت هى التى تعمدت الأمر فلماذا اختارت الرجل العجوز ؟

كان البيت صامتاً والفناء مظلماً عندما أحضرت ذبالة الضوء ووضعتها على ظهر الفرن ثم خلعت ثيابها ووقفت فى «ماجور العجين» وبدأت تصب الماء على جسدها فيزداد تألقاً تحت الضوء المتراقص ، سمعت وقع أقدامه ودبيب عصاه فوق السلم فلم تبال ، سمعت حشرجة أنفاسه فلم تلتفت ، ظلت تواصل صب الماء حتى أحست بأصابعه كالمخالب وهى توضع على كتفها العارية ..

تذكر آدم عينى الرجل العجوز وهما تبرقان ، كيف دبت فيهما حياة غريبة ، وكيف أصبح صوته خفيضاً ومرتعداً ، لابد أن تلك اللحظة مرت بخياله ، برزت من جوف ذاكرته الهرمة فأيقظتها، لابد أن رائحة الماء الساخن والصهد المتصاعد من لحمها الغض مازالت تملأ أنفه ، استدارت إليه ببطء ، حدقت فيه وقد رأته يهرم فجأة تتكاثر التجاعيد وتتثاقل الأنفاس وهو يستنفد آخر ما فى صدره من طاقة ، يسألها :

– من أنت ؟ ..

ينظر إلى نهدها المشرئب وإلى قطرات الماء العالقة به ، قالت :

– وردة ..

بنت من ؟ ..

ذكرت اسم أبيها وأمها ، تذكر كل شئ ، ولكن الجسد العارى كان قد أصابه بارتباك مروع ، خطت ببطء من «الماجور» أسدلت الثوب القديم على الجسد المبتل فالتصق به وظلت تفاصيله بارزة ، جلس مهدوداً وهو يهتف:

– كيف كبرت فجأة .. كيف مر الزمن ؟ ..

تظاهرت بتمشيط شعرها وهى تسمع همهماته الحائرة وهو يحدث نفسه ، كان يحاول أن يقنع نفسه أن ما رآه هو شئ حقيقى وليس مجرد هذيان ليلى ، لم يحاول أن يمد يده إليها مرة أخرى ، كانت هذه النظرة من الجسد العارى قد أعطته من الدفء ما سوف يظل يذكره حتى آخر أيام شيخوخته ، تركته جالساً ومضت وظل هو فى مكانه حتى الصباح واستيقظت نسوة المنزل فوجدنه مازال ذاهلاً وحتى عندما مرت هى بنفسها أمامه لم يستطع التعرف عليها فى ضوء النهار .

وفى منتصف اليوم هجمت عليها نسوة المرسى ، كأنهن اكتشفن وجودها فجأة ، مزقوا ما على جسدها من ثياب قديمة وعطنة وأحضروا لها للمرة الأولى ثياباً حقيقية وعلى مقاسها تماماً ، أخذوها إلى غرفة فى أقصى الدار ونظفوا جسدها من الشعيرات الدقيقة ثم غسلوها جيداً بالماء والصابون وجدلوا شعرها الأشعث فى جدائل رفيعة طويلة ثم ساقوها وأجلسوها أمامه ، كان فى ذات المكان كأنه لم ينهض منذ الأمس ، رفع وجهه وتأملها مرة أخرى وبرقت عيناه كأنه يزيح ثيابها من جديد ويعيد تشكيل المشهد القديم ، قال :

– سوف تتزوجين المتولى :

قال آدم مدهوشاً :

– لم يخترك المتولى إذن ، لم يحضرك بنفسه إلى المنزل . كان يكرر السؤال الأحمق مرة أخرى ، قالت وردة :

– كلا .. كنت دائما أخاف منه ، وعندما تزوجته أصبحت أكرهه .

كان المرسى العجوز قد فطن إلى خطورة وجودها ، الجسد الضائع والأرض الضائعة ، أراد أن يستحوذ على كل شئ ، ولما لم يكن هو قادرا على ذلك فقد قرر أن أبنه الأكبر – أقرب الأصلاب – هو الجدير بهذا الاستحواذ ، وجاء المتولى وهو أيضا لا يدرى ماذا يراد به ، وقف يقلب وجهه بين أبيه والفتاة التى كان جلدها مازال محمراً من أثر الاستحمام والخجل ، هتف المرسى الأكبر به :

– سوف تتزوجها غداً .

ونهض ، سمعت وردة صوت مفاصله المتيبسة وهى تصدر صوتاً متناغماً مع وقع عصاه ، تركهما ، وتركتهما النسوة ، وكان وجه المتولى أصفر مفزوعاً ، يتأملها مثل شبح ، صاح بها فجأة :

– ومن قال إننى أريد أن أتزوج .

ووجدت وردة صوتها فهتفت به :

– قل هذا للمرسى الكبير ..

كان مازال مذعوراً وهو يهتف بها :

– من أنت .. من أين خرجت لنا ؟ ..

أدارت له ظهرها فى هدوء وثقة :

– عليك أن تعرف ذلك بنفسك ..

صاح وهو يبتعد :

– هذا لن يكون ، لن يفرض على أحد إرادته .

وبدأوا يستعدون للعرس ، وكان على وردة أن تجلس هادئة مستكينة حتى يصل كل شئ إلى موطئ قدميها ، لا تدرى من أين أحضروا الأثاث ، ولا متى جهزوا حجرتها الخاصة فى أعلى المنزل ، ولكنهم قادوها إليها فرأتها كاملة لم تحلم بها من قبل ، قالوا :

– الليلة يدخل بك المتولى .

فتحت الدولاب فوجدت ملابس تخصها ، وأحذية ومداسات وقمصان نوم وأدوات زينة ، كانت سطوة آل المرسى غالبة ، ولكنها أدركتها الآن بصورة فعلية .. ولكن الشئ الذى ظل يحيرها حتى هذه اللحظة هو لماذا انتظر الأبن الأكبر كل هذا العمر حتى يتزوج ..؟

لم يكن الفرح صاخباً ، ولم يحدث زفاف ، ظل المتولى جالساً فى القاعة السفلى مع الرجال ، وهى جالسة فى حجرتها وسط النساء ، وجاء الشهود يتعثرون فأمسكوا يدها ووضعوا الحبر على أصبعها ثم وضعوا بصمتها فوق الأوراق دون أن تطلق زغرودة واحدة ، ثم قادوا المتولى إلى حجرتها وأغلقوا الباب بعناية .

لم تكن تحبه ، ولكن جسدها كان يريد رجلاً ، كان مهيئاً لذلك ، الحموم والحلاوة ونزع الشعيرات جعلت كل خلايا جسدها متوفزة ، تتوق بالرغبة ، وقف المتولى بالباب ينظر إليها ، كان يتنفس فى صعوبة وهو يتأملها جالسة على حافة السرير ثم تقدم منها وقال فى صوت أجش :

– ماذا تريدين منى ؟

ورفع يده وأهوى بها على وجهها ، لسعة من اللهب ، سقطت الصفعة الثانية على أذنها فأحست بالغرفة تدور بها ، كانت تريد أن تتقيأ ، ولكنها رفعت أظافرها وغرستها فى وجهه المغطى بالعرق والاحتقان ، صاح يشتمها فصاحت فيه ، ضربها مرة أخرى ، أصبحت القطة الشرسة التى حوصرت ولم تعد تملك إلا أظافرها ، وضعت فيها كل قوتها ، شمت رائحة أنفاسه الثقيلة من أثر نقيع البلح ، أمسكت فى خناقة ، حاول أن يدفعها فارتميا معا على الفراش الذى تحطم وهويا معاً على الأرض ، ضربها فى أسنانها فضربته فى عينيه ، ثم بدأ يحطمان الغرفة ، كسر المرآة المعلقة فوق الدولاب فقذفته بكل أدوات الزينة وبفرد الأحذية ، وتعالت دمدماتها كالحيوانات الحبيسة ..

حدث كل هذا دون أن يصرخ أى واحد منهما طالباً النجدة ، كانا مصممين على تصفية حساباتهما معاً حتى آخر نفس ، ثم رقدا منهكين ، مليئين بالجروح وسط حطام الحجرة وبقايا الزفاف ، ونام كل واحد منهما فى مكانه ، وعندما استيقظت فى الصباح لم تجده .

قال آدم :

– ضربنى المتولى ذات مرة بالعصا ولم أجرؤ على رفع وجهى فى مواجهته .

قالت :

– ربما كنت الوحيدة التى قاومته ، لذا كرهنى بشدة ، وكرهته أنا بذات الشدة .

كدمات على وجهها وحطام فى غرفتها وندوب فى روحها ، كانت هذه

حصيلة ليلة الزفاف الأولى دون أن تفهم سبب كل هذا ، طرقت النسوة عليها الباب فلم تفتح ، وضعن الطعام أمام باب غرفتها فلم تتناوله ، ظللن يواصلن الطرق دون جدوى .. لم تفتح إلا حين سمعت صوت المرسى الكبير ، كان يقف وحده ، متكئاً على عصاه ، حدق فيها مستغرباً ، تأمل وجهها ، رأى الجروح التى على جسدها والحطام الذى يحاصرها ، صاح مرتعداً :

- يفعل هذا بجسدك ذلك الأعمى المجنون ..

كان يعز عليه أن يرى الجسد الذى رآه فى كامل أبهته ونضارته وشهوته وقد أصابته كل هذه التشوهات ، جلس أمامها وهو يتمتم :

- كان يجب أن أعرف لماذا كان يرفض الزواج منك منذ البداية .

صمت قليلاً ثم رفع رأسه وتأملها قليلاً :

- هل تريدين الطلاق ؟ ..

- كلا .. ماذا سيظن أهل النجع بى .

- سأزوجك غيره .

- كلا ..

- هل ستقدرين عليه .

- أجل .. إما أن أروضه .. وإما تجد جثتينا معاً .

نظر إليها فى إشفاق نهم ، كانت نبضات الشهوة مازالت تمور داخل عروقه الهرمة ، كان ابنه الأكبر واسطته إليها فلما خذله أحس برغبته العاجزة .. أمر غريب ومعقد ولكن وردة أحست فى هذه اللحظة أن

العجوز يضاجعها بعينيه ..

غـادر الغـرفـة وبقـيت وحـدها ، جـاء المتـولى فى الليل ، وأعلـن أنه لن يمسـها ، وأن عليـهـا أن تتـركه فى حـاله ، وسـمـعت صـوت شـخيـره طوال الليل ، كـان يجب أن تذبحه فى هذه الليلة ولكنها لم تفعل ، ظلت حـبيسة غـرفـتها عـدة أيام حـتى التـأمت جـروحـها ، سـارت بين النـسوة كـعـروس وليـست كـخـادمـة ، تحدثت بـصـوت مـرتفع ، وأمـرت بقـية الخـدم ، ولكن الليل كان فى انتظارها .

لم تكن هناك ليلة تشبه الأخرى ، أحياناً كان يأتى طائعاً يسلمها أمره ويعتـرف بعجزه ويتـركها تفعل ما تشاء بجسده ، يغـرقان معاً فى بحار العـرق اللزج ، كـانت تحس أنها أشـد عـجـزاً منه ، وكـان هـو لا يكف عن الحديث عن مـغـامـراته ، فـلاحـات الحـقـول ، نسـوة الزرائب ، مـربيـات الدجاج، كلمـات فارغة تنقضى فـى كآبة وصمت وبرود ، وأحيانا كان يأتى ثائراً ، يتهـمها بأنها ليست عذراء ، وأنها فاسدة الجسـد عطنة اللحم ومن أجل هذا لا يسـتطيع الاقـتـراب منها وينتـهى الأمـر بأن ينشـب كل واحـد منهما أظافره فى جسد الآخر ، كان يتهـمها بمضاجعة الجميع حتى كلاب النجع.

أحست بنظرات كل الأخوة تحيط بها ، كل واحد منهم يتمنى أن يحل مـحل أخيه ، يقـوم بما عـجز عنه ، كـانت رائحـة رغـبتـهم فـيها تلاحـقـها ، تطغى على رائحـة الطبـيخ والروث ، ولم تهـدأ المعـارك ، امـتـلأ جـسـدها بالجروح ، وكلت روحها مـن فرط الترقب والإحـبـاط ، انكسـر كل شئ إلا الغشاء الرقيق الذى بين ساقيها ، ثم قالوا لها إن المرسى الكبير يموت وأنه يريد أن يراها ، كـانت تحس بالود تجـاه حطام الرجل العـجـوز ، كان نائماً

على فراشه ، شاحباً شحوب الموت ، جلست بجانبه وسكبت الطيب على لحيته ، ودلكت صدره بزيت الكافور ، وغسلت قدميه بماء الورد ، امتلأت الغرفة بكل الروائح النفاذة دون أن يتحرك ، لم يبق إلا أن يشم رائحة لحمها الطازج النفاذ ، خلعت ثيابها مرة أخرى ووقفت أمامه عارية ، السحر الكامن فى تكرار اللحظة وبعثها من جديد ، ولكنها لم تكن متأكدة فى هذه المرة إن كان يقدر على رؤيتها .

تركت جسدها يشع كل ما فيه من صهد ورغبات مكبوتة ، اخترقت الرائحة فتحتى أنفه ، رأت جسده وقد بدأ يختلج ، ثم ارتفع الرأس الأشيب من فوق الوسادة ليراها بوضوح وقد بدت فى عينيه نظرة عميقة مليئة بالامتنان .

كان جسدها يضوى فى عتمة الغرفة المشبعة برائحة الموت ، تحيط به سحابات من الكافور والطيب وماء الورد ، كانت عروقه كلها تنتفض ، يندفع دم الاشتهاء فيها فى حركة محمومة ، تنفض كل ما فى جسده من آثار الوهن والموت ، تندفع كل رغباته وغرائزه إلى عينيه فيفتحهما إلى أقصى ما يستطيع ويشع منهما بريق داعر ويحرك صدره متنفساً فى قوة وعمق ..

أحست بالغشاء الرقيق وهو يتمزق .. هل تمزق بفعل عينى الرجل النافذتين .. أم أن أصابعه تحركت رغماً عنها ، سالت قطرات لزجة ودافئة ، وأحست هى بارتياح غريب ، كان كل ما يمور فى جسدها من انفعالات مكبوتة قد وجد متنفساً ، ارتدت ثيابها وغادرت الغرفة .

جلست نصف عارية فى حجرتها ، دخل المتولى الغرفة ورأى آثار الدم على فخذيها ، صرخ فيها : من ؟ ، قالت بلا مواربة : أبوك ، صرخ : أنت

كاذبة ، صرخت فيه : أبوك وكل اخوتك واحداً .. واحدا .. انهال عليها ضرباً ، أهوى على الغرفة تحطيماً وظل الدم قانياً واضحاً فظل يضرب رأسه فى الحائط حتى سقط على الأرض دون حراك ، وكانت تدرك المصير الذى ينتظرها ، وكان عليها أن تجمع كل ما تقدر عليه وان تهرب بعيداً ، ولم يكن أمامها إلا الجزيرة ، توقفت وردة عن الكلام فجأة وهى تهتف :

- لقد أقبلوا ..

كيف رأتهم فى هذا الظلام الحالك ، الشاطئ هادئ ، الأشجار القصيرة والأشواك بلاحراك ، حتى الريح بلا صوت ، قال :

- لا أسمع شيئاً ..

- لقد أقبلوا .. إننى أحس بهم .. أشم رائحتهم ..

مدت يدها وأمسكت البندقية .. نظرت نحوه فى شراسة وهى تهتف :

- هل ستسلمنى لهم ..؟ ..

نهض واقفاً وهو يرتعد ، وسمع صوت مجاديفهم وهى ترتطم بالمياه .. بدت فجأة أشباحهم الباهتة متجهين من ناحية الشاطئ ، ثلاثة قوارب تزحف كالأفاعى ، الماء ينزاح من أمامها ، والشاطئ يبتعد عنها ، والجزيرة تقترب ... حانت اللحظة فأيهما تريد .. ؟ .. كان مديناً لها .. وكان الحديث الطويل الذى دار بينهما شيئاً لا يمكن أن ينساه ، وهذا الليل المظلم الكئيب النجوم لا يرشده ، لا يريه طريقاً يسلكه ، عاد إليها ، كانت ترتجف .. قالت له :

- سوف يذبحوننى أمامك ..

مد يده وأخذ البندقية ، تركتها له ، لم تكن يده المرتعدة قادرة على القبض على أى شئ ، أصبحت القوارب أكثر وضوحاً ، رفع آدم البندقية

عالياً وضغط على الزناد ، دوى الصوت العالى عبر الماء وظل الصدى يردده عشرات المرات ، توقفت القوارب .. سمع صوت جابر وهو يصرخ فيه :

– خذ منها السلاح يا آدم .

فرفع آدم البندقية مرة أخرى وأطلق طلقة ثانية ، وهذه المرة أدركوا أن الأمر قد خرج من أيديهم ، إذا لم تسمع البلدة الطلقة الأولى فسوف تستيقظ مع الثانية بالتأكيد ، ظلوا واقفين ، عاجزين عن التقدم والرجوع .. صاح صوت غليظ :

– سوف ندفنكم فى الجزيرة يا أولاد الكلب .

ولم يطلق آدم الرصاصة الثالثة فى الهواء ، أطلقها مباشرة على أقرب القوارب إليه ، رأى القارب يهتز وسمع صوت صرخة مكتومة ، سمع صوت الشتائم عالياً وأدركوا أن الفضيحة سوف تكون بجلاجل فاستدارت كلها دفعة واحدة عائدة إلى الشاطئ .

طوى الظلام أشباحهم ، اختفوا وسط حشائش الشاطئ وأشواكه ، وأطبق الصمت ، عاد إليها ببطء ، جلس بجانبها ووضع البندقية أمامها ، كان يرتجف وكانت هى هادئة تماماً ، أحس بيدها وهى توضع فوق كتفه، تضغط عليه برفق تحاول أن توقف رجفته ، رأى المرسى الكبير يحدق فيه، وصعدت فى جوفه لزوجة البلح ، وتذكر جسد المرأة الأبيض فى ظلمة الزريبة ، كان تنفسه ثقيلاً وكانت أصابعه فوق لحمه ، تتحسس رقبته وتستدير لتدخل صدره عبر فتحة الجلباب ،

تذكر غزالة ورأى النجوم فى السماء مطفأة وبعيدة ، أخذت تكشط بأظافرها ذرات الطين العالقة بجلده ، ماذا تريد منه بالضبط ، تكافئه أو

تغريه ، أم أنها مازالت فى حاجة ملحة إلى رجل ، استدار إليها ووضع يده على صدرها ، ثدياها جامدان ، متوفزان من شدة البرد والرعب وحرقة الرغبة ، مدت فمها وعضت صدره بأسنانها، أحست فى فمها بطعم اللحم والطين والعرق ، وضع صفحة وجهه على فخذها فأحس بدفء غريب ، أخذته إليها ، أدخلته فى جسدها فكان ناعماً كالبساط الأخضر ، شرها كالأرض الشراقى ، صهد من النار ، ورائحة زهر البرسيم ، وزخم اللبن وهو ينسال من ضرع الجاموسة رغماً عنها ، تأوهت وقالت من أعماقها .. أخيراً يارب أخيراً ..

كانت تحته وبين أصابعه ، تحيطه بذراعيها وساقيها وكان جسده يغتسل بين يديها ، ينز ما عليه من عرق وطين وخلايا قديمة ، لم يعد ثدياها جامدين ، دخلا فى فمه واحداً بعد الآخر فارتجف جسدها كله واحتضنته لدرجة الالتحام ، بدأ الماء يفور ، يخرج على سطحه جانب مثل كل الأكاذيب العذبة ، كانا نائمين ، متداخلين وشاطئ النيل يقتربان لحد الموت ويفترقان لحد الضياع ، تحولا معاً إلى جسد واحد ، غمرها العرق والدفء فأحسا بأمان نادر ، وصعد الفجر وئيداً وظلت الطيور ساكنة كأنها تحاول أن تؤجل لحظة اليقظة ولحظة الخوف إلى المدى الأخير .

ثم أشرقت الشمس فنهضا مفزوعين ، تبدد دفء الظلام وماتت نشوة الليل ، بدأ الشاطئ واضحاً ومتعرجاً كحبل المشنقة ، سمعا صوت ضربات المجاديف ، انفصلا ونهضا واقفين متحفزين ، أمسك هو العصا وأمسكت هى البندقية ، كل شئ عاد إلى قسوته وجهامته ، قارب فى منتصف النهر ، يقف فى مقدمته شخص ضخم ، عريض المنكبين ، هتف آدم فى صوت متوتر :

- إنه العمدة ..

رفعت البندقية إلى أعلى وسمعه أدم وهو يصيح :

- الأمان يا آدم الأمان ..

لم يكن هناك أمان تحت ضوء مثل هذا النهار ، سحبت المرأة ترباس الأمان ، وسمع العمدة « التكة» فعاد يصيح :

- لا تكونا مجنونين ، لا تتهورا .. لقد جئت من أجل الصالح ... قال آدم وهو يقف فى مواجهته ممسكاً بالعصا :

- لا تقترب إذن أكثر من هذا ..

وقف القارب ، وكف «مغاورى» عن التجديف ، جاهد العمدة حتى يقف متوازناً وسط القارب وهو يصيح :

- هل تسمعنى جيداً ..

أوما آدم برأسه ، ولكن العمدة زيادة فى التأكيد وضع كفيه حول فمه وصاح :

- تزوجها ..

لم يفهم آدم ماذا يقصد ، عاد العمدة يهتف :

- تزوجها ..

- تزوجها يا ولد ، هذه هى الطريقة الوحيدة التى تجعل المرسى وأهله يعجزون عنكم ، لو تزوجتها فلن أدعهم يمسون شعرة من رأسك ..

قال آدم متغابياً :

– ماذا تقصد ؟ ..

صاح العمدة فى نفاد صبر :

– لا تضيع الوقت وإلا جاءوا وقتلوك بحجة الزنا ، تزوجها وانفد بجلدك وسوف أضمن حمايتك ، لن ينتقل الخفر من الشاطئ إلا بعد أن تسمع أصوات العويل من بستان المرسى الكبير .

أدار رأسه نحوها ، عيناها تبرقان ، تقدمت إلى الأمام ووقفت بجواره فى مواجهة العمدة بحيث يراها فى وضوح ، قالت فجأة :

– اذهب وأحضر المأذون ..

صاح العمدة وهو يفرك يديه :

– هذا هو الكلام المضبوط ، كل شئ جاهز ، سوف نقتل المرسى الكبير وهو وهى .. وسوف يفكر أولاده ألف مرة قبل أن يتحدونى ..

وأشار ناحية الشاطئ ، كان هناك قارب آخر ، عليه شيخ الجامع العجوز وبجواره اثنان من الخفر ، أحس آدم أن كل شئ يمضى رغماً عنه ، تبدد من جسده دفء الليلة الماضية ، تذكر أن غزالة قد ابتعدت أكثر وأنه فى سبيل هذه الجزيرة التى لم يمتلكها قد فقد كل شئ تقريباً ، نظر إليها فبادلته نظرات جامدة ، لم يترك له أحد أى فرصة للتراجع ، اقترب القارب الآخر وصاح العمدة :

– جاء المأذون ..

وتمتم آدم وهو يشير ناحية الخفر :

– وهؤلاء .. ؟

– الشهود ..

ازداد اقترابهم فأحس أنهم يحاولون خداعه ، صاح :

– لا ينزل أحد على سطح الجزيرة .

قال العمدة :

– فليهبط المأذون فقط .. إنه شيخ المسجد ولا يمكن أن يخدعك ..

– ولا المأذون ..

– يا صبر أيوب ، فليزوجكما فى أى وضع ، هل هناك مانع شرعى أيها الشيخ .. وقف القاربان يتأرجحان ، كان وجه الشيخ مصفراً ، وهو رابض فى القاع ، يرفع رأسه بصعوبة ليطل عليهما ، هتف بصوت متحشرج :

– فلنقرأ الفاتحة .

رفع الخفر أيديهم إلى السماء ، كذلك فعل العمدة ومغاورى واضطر آدم إلى أن يفعل مثلهم ويردد الأيات بسرعة ، قال الشيخ :

– قل لها زوجتك نفسى ..

استدار إليها ، رأى وجهها وملامحها وعينيها اللتين تشعان بالشهوة ، أحس أنه يدخل إليهما بلا عودة .

قال الشيخ : على الصداق المسمى بيننا .

أدرك أنه دفع غاليا ثمناً لهذه الجزيرة ، وأن غزالة قد ضاعت إلى الأبد وكان الشيخ يقول :

على مذهب الإمام أبى حنيفة ..

كانت هى التى تردد الكلمات هذه المرة ، زوجتك كل خلية من خلايا جسدى ، كل ارتجافة من رغبتى ومن توقى ، هربت منهم إليك ، ونفذت من الطين إلى رقائق جسدك ، فهل أنا بذرة .. أم سم ناقع ؟ صاح العمدة فى صبر مبالغ فيه :

– مبروك يا ولد ، الآن دخلت الدنيا من أوسع أبوابها وكسرت أنف السادة .

ضحك العمدة وضحك الخفر وظل وجه شيخ المسجد مربداً وقال مغاورى :

– والله عملتها يا أدم .. أصبحت لك امرأة وجزيرة .

ثم بدأوا يبتعدون دون أن يكفوا عن الضحك ، بمثل هذه البساطة المريبة تم كل شئ ، وصل الخفر إلى الشاطئ وأطلقا طلقتين فى الهواء تحية لهما وليبلغا بقية النجع أن الزواج قد تم ، وجلجلت ضحكة العمدة ، لعله كان يتخيل وجه المرسى الكبير .. ولكن أدم أحس أنه فقد كل شئ ، من فور أن ينصرف العمدة ورجاله سوف يأتون إليه ويذبحونه فى وسط النهار وتحت ضوء الشمس .

انسحبت من أمامه ، بدأت تعيد ترتيب البيت ، ازاحت القش ، ذات القش الذى كان مايزال محملاً بآثار عرقهما الليلة الماضية ، كل شئ قد أصبح بارداً الآن ، برودة القتل المتوقع والصمت المتواطئ ، انصرف الجميع، وسحب العمدة كل وعوده بالحماية ، قالت فجأة :

يجب أن نبنى سقفاً قبل أن يحل الظلام ..

قال فى صوت خافت :

- لن يتركونا نبنى أى شئ ..

قالت فى حدة :

- حتى ولو كانت هذه ليلتى الأخيرة .. من حقى أن أقضيها تحت سقف .

نهض متثاقلاً وأخذ يعيد جمع الأغصان والأوراق ، كان البيت ضيقاً ، هل يهدم الجدران ويوسعه قليلاً ، أم يبقيه هكذا صالحاً ليكون مقبرة ، نظر إلى الشاطئ ، بعض الفلاحين يتلكأون ويراقبونهم ، كلهم جاءوا كى يشهدوا اللحظات الأولى والأخيرة من لحظات العرس .

كانت تبنى موقداً ، تواصل صنع حياتها الخاصة غير مهتمة بكل ما فى داخله من مخاوف ، لم تنظر إليه ، ولم تبال بالنظر إلى الشاطئ ، ظلا يتابعان العمل فى بطء وتوتر وظلت وجوه الفلاحين تروح وتغدو على الشاطئ ، ثم قالت فجأة فى صوت بارد كأنها تقرر حقيقة واقعة :

- لقد عرفوا الخبر وجاءوا ..

كان السقف والموقد قد اكتملا فى وقت واحد ، وكانوا على الشاطئ بالجلاليب البيض والعمائم دون قوارب ، يروحون ويغدون مثل حيوانات متحفزة ، ادرك آدم أنهم لا ينوون عبور النهر إليه ، لن يقتلوه فى النهار على الأقل .

توارت المرأة ووقف آدم يراقبهم ، جاء جمع آخر منهم ، يسيرون ببطء ويصعدون من وراء أحراش الشاطئ يحملون فيما بينهم شيئاً ما ، مقعداً من جريد النخل ، اقتربوا من حافة النهر وساروا بحذر حتى استقروا به على الأرض ، كان المرسى الكبير يجلس فوقه ، تركوه وانصرفوا جميعاً، اختفوا مثلما جاءوا وظل الرجل العجوز وحيداً فى مواجهتهم تماماً ،

تقدمت وردة ببطء ووقفت على حافة الجزيرة وكأنما حملت الريح رائحتها إليه ، رفع رأسه وأدار عنقه وأحس آدم بتوقد عينيه وهما تعبران الماء والطين إليهما ، بدا كأن الوغد العجوز يضاجعها بعينيه كما تعود أن يفعل دائما ، أحس بالغضب ، وبشعور غامض من الغيرة ، وقال في ضيق :

هل سيبقى هنا طويلاً .

كانت واقفة ، تتلقى رغبته بكل جسدها ، تمتمت :

– لن يقتلني ، إنه يريدني حية .

– سوف يقتلونني أنا إذن ...

لم ترد عليه ، لم تكن هناك حاجة لأي رد ، عليه الآن أن يدفع ثمن لحظة التردد في أن يسلمها لهم ، وثمن عجزه أمام العمدة ، ظلت واقفة فصرخ في غضب :

– تراجعي من أمامه ، هذا العجوز المجنون ، دعيه يمت فوق مقعده .

تراجعت ، جمعت الأعشاب وبدأت تحشو بها جوف الموقد ، ثم بدأت تضرب الأحجار حتى استطاعت أن تشعل النار وأن ترسل دخانها عاليا ، ولكن العجوز كان معهما ، كان آدم يحس بوقع أنفاسه وهي تتردد بينهما، تختلط بالكلمات القليلة التي يتبادلانها، وعندما مالت الشمس للغروب وبدأت الطيور في الانكماش هبط أولاد المرسي إلى الشاطئ وحملوه وظل دخان وردة يتصاعد من موقدها .

هذه الليلة أشعلا ناراً ولكنهما جلسا غير متلاصقين ، دفء ولا رغبة ، بلا أدنى احتياج للتلامس ،كان عينا العجوز تصنعان حاجزاً بين

جسديهما ، وكان عقد الزواج لم يضف إليهما إلا المزيد من المخاوف والتباعد ، ظل آدم يواصل التطلع إلى الشاطئ البعيد متوجساً من أى ظل عابر ، من عواء أى ذئب وحتى من ثرثرة الجنادب، كل همسة هى مقدمة للخوف .. ماذا سيكون موقفها عندما يصلون .. هل ستقدمه لهم عقاباً على لحظة التردد وانتهاك عرض السادة ، سمع نفسه وهو يقول لها فى صوت خافت :

- لم تخبرينى كيف مات ؟ ..

التفتت إليه فى ذعر وهى تهتف : من ؟..

- المتولى .. قلت لى كل شئ بالتفصيل .. إلا لحظة النهاية .. لحظة الموت ..

حدقت فيه قليلاً ثم هتفت فى مرارة وهى تنكمش حول نفسها :

- أنت لم تصدقنى إذن .. ؟!

ماذا كان يمكن أن يقول والشاطئ يقترب من الجزيرة بكل ما عليه من نذر ومخاوف ، صاح .

- إننى محاصر ، أحس أننى أختنق ، الجزيرة حولى ، وأنت داخل بيتى.. ولا فكاك .. وضعت يدها عليه باردة ، لا تحمل أى ألفة .. قالت :

- لماذا لا نرحل من هنا ، أرض الله واسعة ، نحن الآن زوجاً وزوجة ، لننس النجع وآل المرسى ولنعش حياتنا بعيداً فى أمان .

أزاح يدها ، ابتعد إلى أقصى ما يستطيع ، هتف فى صوت مختنق :

إنها أرضى ، الشئ الوحيد الذى أمتلكه ، كيف أتركه ، لم يفلح أحد فى

انتزاعه منى ، كيف أرحل بعيدا ، سوف أبقى هنا وأزرعها .

– إنها صغيرة ، لن توفر لنا الطعام ولا الحماية .

حلمه الوحيد تحول إلى كابوس ، حولته هى ، نزعت كل شئ وغيرت مسار كل شئ ، قال :

– سوف أنزل غداً إلى النجع ، اشترى بذوراً وأبدأ الحرث والغرس .

زفرت فى ضيق ، تأملته كأنه كائن غريب ، هتفت :

– أنت تحلم ، لن يتركوا لك الوقت لتزرع أو تقلع ، إذا كنت تريد أن تبقى هنا عليك أن تتفق مع ابن معتوقة .. هو الوحيد الذى يستطيع أن يوفر لنا الحماية .

أمسك ذراعها فى غيظ ، ترى .. كيف طرأت هذه الفكرة الغريبة على رأسها ؟ صرخ :

– لن يحدث ، لن أحول جزيرتى إلى ماخور ، إذا لم تعجبك هكذا .. ارحلى أنتِ .. ارحلى بعيداً .. لم أكن أريدك ، ومازلت لا أريدك ..

– أعلم ذلك ... أنت تريد أن تهبط النجع من أجلها حتى ولو قتلوك .. تريد أن تطردنى من الجزيرة كى تأتى هى بدلاً منى ..

كانت ألسنة اللهب تنعكس على وجهها ، شهوة برية لا تخمد ، تدمر كل من يقترب منها ، تدفعه إلى حافة الجنون والموت ، تحركت شفتاها ، انفرجتا عن أسنانها وهى تهمس فى صوت مرتعد :

– نم معى ، ربما هدأت ، ربما هدأ كل شئ

دفعها بعيداً وهو يصرخ :

– تريدين أن يقتلونى وأنا عار بين فخذيك ..

– لن يأتوا الليلة .

– سيأتون .. الليلة .. غداً .. سيقتلوننى ويأخذونك للرجل العجوز حتى ينتعش عندما يشم رائحة دمى فى جسدك ..

– نم معى وانس كل شئ ..

– لن ينسانى الموت ، الموت الذى دفعتنى فى طريقه .

ضمت شفتيها وصمتت ، أدارت ظهرها له ، رآها وهى تهتز ولكنه لم يسمع أى صوت صادر منها ، تقوست على نفسها ونامت على الأرض وسكن كل شئ إلا من طقطقات النار ، وظل آدم ساهراً ، خمدت النار ، وتطاير الرماد واشتد البرد دون أن يجرؤ على النوم ، تطاير كل شئ دون جدوى ، فهل نامت عيون آل المرسى ؟ ،

غلبه التعب أخيراً فأغمض عينيه ، رآهم يأتون إليه ذات يقظة غريبة ، يهدمون الكوخ ويستلون الأغصان ويصنعون منها طوفا يربطونه إليه ويتركونه للنهر يقوده لمصبه المالح ، نهض مفزوعاً وطيور الفجر تصرخ ، وكانت هى مازالت مستغرقة فى نومها ، يرتجف حتى بعد أن أشرقت الشمس ، نظر إليها وهى تنهض ، تتمطى مثل حيوان برى تمد يدها إلى صدرها وتقول له فى صوت باتر :

– هذا كل ما لدى من نقود .

لم تكن كثيرة ، كان عليه أن يبدأ البذر قبل أن يأتى الجوع ، وكان الصباح برغم كل شئ محملا بالأمل ، أدرك أنه مازالت لديه بقية من الوقت ماداموا لم يبادروا بقتله هذه الليلة ، ربما كانوا خائفين من العمدة ،

ربما كانت هناك حسابات أخرى لا يدرى بها ، المهم أن يهبط إلى شوارع النجع وأن يثبت للجميع أنه ليس خائفاً .

جاء مغاورى ، وحمله القارب ، وظلت وردة واقفة بجسدها الشامخ على حافة الجزيرة وهو يبتعد ، وحتى عندما وصل إلى الشاطئ كانت لا تزال واقفة ، سار على الطريق الضيق المؤدى إلى النجع ، تأمله الفلاحون وهم يقودون بهائمهم فى طريقهم إلى الحقول ، بعضهم حياه وبعضهم ربت على كتفه ولم يبتعد أحد ، تركوه وحيداً أما أن يقتنص حياته هذه المرة أيضا ويؤكدها وإما أن يفقد كل شئ .

اقترب من الساقية المهجورة التى تقع فى أول النجع ، كان ابن معتوقة جالساً عليها ، يتطالع نحوه كأنه ينتظره وكأنه يعلم ميعاد قدومه ، قفز من فوق الساقية وسد عليه الطريق تقريباً ، كان يرتدى بالطو أصفر فوق جلباب أصفر وعندما فتح فمه بدت أسنانه المفلوجة ، هتف آدم فى ضيق :

– ماذا تريد يا بن الملعونة ..

– رفع ابن معتوقة يده إلى أعلى كأنه يعلن استسلامه وقال :

– عفا الله عما سلف ، نحن أبناء اليوم ، اللهم ابعد عنا الشجار .

استرد آدم أنفاسه ، أدار رأسه ليرى إن كان هناك كمين جديد قد عده له ، لاحظ ابن معتوقة حركته فعاد يضحك فى صوت مسلوخ وهو يقول :

– أنا وحدى هذه المرة ، لا غدر بعد اليوم ، ليس هناك أفضل من التفاهم ، إلى أين أنت ذاهب ؟ ..

– ليس هذا من شأنك ..

- الكلام أخذ وعطاء ، لعلك مثلاً تفكر فى زراعة جزيرتك .. الا ترى أنها ليست كافية لإطعام طفل صغير ، فما بالك وأنت رجل متزوج .

بدأت مشاعر الغضب تتصاعد من داخل أدم من جديد ، أحس أنه محاصر ، كل واحد يريد أن يتم صفقته رغماً عنه ، لوح بالعصا فى وجه ابن معتوقة وهو يصيح :

- ابعد عنى يا ابن معتوقة ، هذه مهنة لا تليق بالرجال من أمثالى ..

- ولكنها تليق بى ، إنها مهنة مثل كل المهن ، على أية حال أنا تحت أمرك فى أى حل تراه .. إذا كنت تريد ثمنها دفعته لك ، وإذا أردتنى شريكاً فأهلاً وسهلاً ، وإذا اردت مبلغاً من المال كل شهر وليس لك أى شأن بما يدور على الجزيرة فأهلاً وسهلاً أيضا .

الله لى ولن أعطيها للحرام أبداً .

استدار لينصرف ، لم يعد يطيق هذه الإبتسامة المفلوجة التى لا تعرف الغضب ، عاد ابن معتوقة يعترض طريقه مرة أخرى وهو يقول :

- وحتى الحماية التى أنت فى حاجة إليها .. لن يوفرها لك إلا رجالى .. وزبائنى ..

هل كان هو أيضا يرقد بينهما فى الليلة الماضية ؟ ..

- لن يجرؤ أحد على قتلى .. أنت ترى أننى ذاهب إلى النجع بنفسى .

- وهل تعتقد أن آل المرسى بهذا الغباء ، يقتلونك ليلة زفافك ويعطون للعمدة فرصته كى يبلغ السلطات ويضايقهم ، بل وربما يثبت الجريمة عليهم ، سوف يفعلونها بك بالتأكيد ولكن ليس الآن ..

أدار آدم ظهره له واتجه إلى النجع ، سمع صوت ابن معتوقة وهو يصيح :

– فكر فيما تقول ، وعندما تحسم أمرك سوف تجدنى ..

لم يكن يريد أن يستمع إليه ، لم يكن يريد أن يستمع إلى أحد ، انقاذه الوحيد أن يجد بذوراً يغرسها ، وأن تتفتح أرحام الأرض كى تعطيه نبتها ، إنقاذه الوحيد أن يجلس بين يدى غزالة يعتذر لها عن كل ما مر وأن يعيدا معاً ترتيب كل شئ .

غاص وسط الأخصاص ، تطلعت إليه وجوه النسوة العجائز ، ماذا كان شكل أمه فى لحظة الولادة ، ولحظة الموت ، سار إلى خص غزالة ، لم يكن أمامه أحد وكان الباب مغلقا ، نادى على اسمها فلم يرد عليه صوت ، توقع أن تظهر رأس الرجل العجوز فجأة ليطلب منه الانصراف ، لم يحدث شئ ، دفع الباب ، وجدها مكومة فى أحد الأركان ، أمامها نار مطفأة يتصاعد منها الدخان ويعبق جو الخص ، ويجعل الرؤية غائمة ، ضئيلة فى ثوبها الأسود ، ملتفة حول نفسها ، ناداها فرفعت رأسها ببطء ، عيناها مطفئتان ، استنفدتا كل ما فيهما من دموع ، هتفت فى صوت واهن :

– لقد مات .

أخيراً مات ، كان غريباً أن يجرؤ الموت عليه ، جسده متكوم فى الركن الآخر ، متقوس على نفسه ، مفتوح العينين ، فاغر الفم ، خرجت منه أنفاس الحياة الأخيرة فى صعوبة وقاوم طويلاً حتى همد ، لم تجرؤ غزالة على إغماض العينين الزجاجيتين ، مد آدم أصابعه المرتجفة وأغمضهما فارتاح قليلاً ، استطاع أن يجلس بجانبها ووضع يده على ركبتها ، كانت

باردة ، بعيدة ، ارتعدت حين لمسها فاضطر لأن يرفع يده .. قالت :

– لقد أصبحت وحيدة .. معدومة .. لا أملك شيئاً ..

– قال أدم فى سرعة :

– أنا معك ...

التفتت إليه فى حدة ، ذابت نظرة الحزن وحلت بدلاً منها نظرة مليئة بالكراهية :

– انت .. انت لا تمت إلى بأى صلة ، لقد بعت نفسك من اجل هذه القطعة من الطين ، اذهب إلى المرأة التى تنتظرك هناك .

– هذه المرأة سوف تذهب ، لم اخترها ، لقد فرضوها على ، هى ايضاً فرضت نفسها على .

– أنت الذى اخترت ..

– انا احبك يا غزالة ..

– وتحب الجزيرة اكثر .. وتحب نفسك اكثر واكثر ..

– سوف اتخلص من كل شئ .. ونبدا معاً ..

– فات الوقت ، انا ايضاً ضقت بالفقر والعوز وعلى أن ابحث عن شئ آخر وحياة أخرى ، اذهب عنى ، دعنى لأحزانى ..

حدق فيها وهى تعاود الانكماش على نفسها ، كان الدخان مازال يتصاعد فأحس بالاختناق ، بدا كان الجثة على وشك التأهب كى تطرده ، نهض منحنى الراس ، ألقى عليها نظرة أخيرة فلم تنظر نحوه .. ظل الموت يخيم على الجسدين معاً .

سار وسط الأخصاص ، على حافة الترعة الضحلة ، عبر الجسر المكسور ، نظروا إليه فى صمت ولم يتبعوه ، ظل قابضاً على النقود ، رفض تاجر الحبوب أن يعطيه بالأجل ، وتخلى مرعى البقال عن حماسته ولم ينزل العلبة الحمراء من فوق الرف ، أعطاه بالضبط بقدر ما دفع ، وكان الشاى على المقهى قليل السكر ، هدوء ملئ بالحذر والتوجس ، كان النجع خاليا من كل الناس والذين يقابلونه هم مجرد أشباح سرعان ما يختفون خلف أكوام السباخ وفى أعماق الحوارى الضيقة ، أكل بعض الخبز ، وحاول أن يجلس فى أحد مجالس الثرثرة ولكنهم صمتوا فاضطر للقيام ، فكر فى العودة إلى الجزيرة ، توقف أمام المسجد القديم ، كان الحصر متآكلا والجدران آيلة للسقوط ، جلس وحيداً مستنداً إلى الجدران، لم يصل قبل الآن ، ولم يفكر فى الصلاة ، كل شئ كان بعيداً عن متناول يديه ، لم يكن هناك من يتدخل لإنقاذه ، تطلع إلى الآيات القرآنية المكتوبة على الجدران بالجير الملون .. ترى ما الذى أنزله إلى النجع بالضبط ؟ .. ليقابل غزالة .. أم ليقدم رقبته لآل المرسى ، هل هذا هو وداع الروح الأخير ؟ كان شيخ المسجد يقترب منه ، يقف أمامه وهو يهتف به :

– جئت تسألنى طبعاً عن زواجك ؟ ..

رفع آدم رأسه حائراً .. عاد الشيخ يسأل :

– هل أكملت المرأة عدتها .

لم يدر آدم ماذا يقول ، ولم يعرف ماذا يعنى الشيخ .. قال هامساً :

– لا أعرف ..

صاح الشيخ حانقاً :

– اللعنة عليك أنت والعمدة فى يوم واحد ، سألته ذات السؤال فساقنى عبر النهر كالحمار ، إذا لم تكن هذه المرأة قد أنهت عدتها فهذا الزواج باطل هل تعرف ذلك ؟.

– اذهب واسألها إذن وإلا فهى محرمة عليك ..

واستدار وتركه ومضى ، هناك خطأ ، دائما هناك خطأ .. كل خطوة يخطوها تنبت تحتها عشرات الأشواك ، الظلام بدأ يهبط ، والمصلون يستعدون لصلاة المغرب ، نهض آدم وغادر المسجد محنى الرأس ، آن الأوان كى يعود إلى الجزيرة وإلى المرأة التى تنتظره ، ولكن الدروب تداخلت تحت قدميه عوت الكلاب وهى تحذره ، وأطفأت أنوار «الكلوبات» فى الدكاكين الصغيرة ، كان الليل يحتوى كل شئ فى صمت مطبق، لم يكتشف أنه قد أدار ظهره للجزيرة إلا بعد أن تباعدت المسافات وفات أوان التراجع ، كان يقترب من البيت الكبير ، البيت الذى شاهد مولده فى الزرائب ، سوف يشهد موته أيضا ، يسعى إليهم طائعاً يمد يديه ويدق الباب وينتظر حتى يفتح ، بدت امرأة عجوز ترفع ذبالة المصباح إلى وجهه دون أن تستطيع التعرف إليه ، قال لها فى صوت باتر :

– أريد مقابلة الرجال ..

انسحبت من أمامه وغابت داخل الدار ، ثم جاءوا جميعاً كأنما اشتموا رائحته ، بقامتهم العريضة وثيابهم البيضاء ، حدقوا فى وجهه باستغراب، ثم تحولت النظرات إلى غضب عارم ، صاح الجابر :

– جئت بقدميك ..

قال آدم فى صوت خافت :

– لم أعد قادراً على الانتظار ..

قال الجابر فى أسف :

– لم تحن لحظتك بعد يا ابن الحرام .. لسنا بهذا الغباء .. خيم الصمت ، لم يجرؤ آدم على أن يستدير وينصرف ، وظلوا هم يتطلعون إليه فى حيرة ، ثم هتف الجابر فجأة وقد طرأت على ذهنه فكرة جديدة :

– فليقرر المرسى الكبير مصيرك .

وهكذا دخل الدار الكبيرة من بابها الرئيسى للمرة الأولى فى حياته ، ولكنه برغم ذلك شم ذات الروائح الأثيرة التى تسكن جسده ، صعدوا فوق السلالم ، دخلوا إلى الغرفة الواسعة التى يتوسطها سرير نحاسى ضخم ، كان المرسى الكبير راقداً ، جثة مهدمة على وشك التحلل عند أى لمسة ، لم يستيقظ فيه إلا العينان ، فتحهما عندما دخل الرجال إلى الغرفة، رفع أصبعه المعروقة الشبيهة بجريدة النخل فانصرف الجميع وأغلقوا الباب خلفهم ، تركوا آدم وحيداً فى مواجهته ، برغم أنها لم تكن المرة الأولى فقد ظل شعور الرهبة يلازمه ، برغم كل علامات الوهن كان يتوقع أن يقفز الشيخ العجوز ويطبق على عنقه ولن يستطيع رده ولا مقاومته ،

لم ينهض المرسى ، رفع أصبعه مرة أخرى فاقترب آدم حتى شم رائحة الجسد الذى بقى طويلاً فى الفراش حتى بدأ العطن يدب فيه ، ازداد بريق عينيه، تحركت شفتاه ، كم مرة هاجمه الموت ودب فيه البعث من جديد ، مد أصابعه تحت الوسادة وسحب ببطء لفة من الأوراق القديمة الحمراء ، ذات نوع النقود التى كانت وردة تعطيها له ، ألقاها أمام آدم واستجمع كل أنفاسه قبل أن يخرج صوته متحشرجاً :

– اقنعها بالمجئ إلى ..

ظل آدم يحدق فيه والرجل العجوز لا يكف عن المساومة ، عاد يقول :

– لو تركتهم لقتلوك وقتلوها ، ولكن أريدها أن تأتى إلى هنا طائعة بكل إرادتها وأنت الوحيد القادر على ذلك ..

قال آدم أخيراً :

– كلا .. لا أستطيع ..

– أنت زوجها ، أخبرها أننى أموت ، خذ النقود واقنعها .. كانت النقود رابضة فوق غطاء الفراش ، ثعبان منطو ومتحفز ، كان آدم يريدها بشدة ولكن كان هذا شيئاً يفوق طاقته ، تلك الدرجة المريرة من البيع والشراء ، أحس فجأة أن هناك ما يوحده مع هذا الشيخ العجوز .. جسد المرأة المتنائية التى تجلس فى هذه اللحظة وحيدة فوق جزيرة مقفرة تنتظر مصيرها ، كلاهما شم رائحة ذات الجسد ، وعرفا ذات الدفء ، آدم بجسده والمرسى بعينيه ، ولابد أن العجوز قد قرأ ما يجول فى خاطره فقد قال فجأة :

– هل قصت عليك حكايتها ؟ ..

– أجل ..

سكت الشيخ قليلاً كى يسترد انفاسه ثم واصل القول :

– ربما قالت أشياء حقيقية ، ولكنها هى التى قتلته .

– كلا ..

– كنت بحاجة إليها ، لم تبق على قيد الحياة طوال هذه المدة إلا لحاجتى

إليها ، لقد دست له السم ، طبيب الوحدة المجاورة هو الذى شخص سبب الوفاة ولولا المبلغ الذى دفعناه له ما رضى أن يكتب شهادة الوفاة ..

هذا الجسد العطن ماذا يريد بالضبط ؟ .. أحس فجأة بأصابع الرجل وهى تقبض على يده ، تغوص فيها كالمخالب ، يقدم له النقود بيد مرتعدة:

- أريدها ليوم واحد ، سوف تأتى آمنة وتنصرف آمنة ..

امسك يا آدم بالنقود ، كان لها ملمس غريب ، استبدل موته بجسدها، استبدل جسدها بحفنة من النقود ، تراجع قليلاً ، حاول أن يبعد وجهه عن عينى الرجل العجوز النافذتين ، كانت النقود لاسعة ، جارحة كالأشواك البرية ، حاول أن يقبض عليها بشدة وأن يقنع نفسه أنها من حقه وأن وردة تستحق كل ما سوف يحدث لها وليس عليه إلا أن ينسى ويقبض الثمن ، ولكن أصابعه كانت تستعصى عليه ، لا يستطيع أن يقوس عظامها ويشد عضلاتها ويجعلها تقبض على النقود فى إحكام كما يجب أن يكون ، كانت تنزلق من بينهما ، تسقط على الأرض دون صوت ، لا يدرى هل رآها العجوز أو لا ، ولكنه استدار وخرج من الباب ، وجدهم فى الخارج ينظرون إليه شذراً ، تركوه يهبط من فوق السلم ، ويخرج من الباب ، وكان هواء الليل بارداً محملاً برائحة الزرع والسباخ ،

عبر النجع المظلم كله فى دفعة واحدة ، أدرك فجأة وهو يواجه سماء الله البعيدة المليئة بالنجوم الشاحبة أنهم جميعاً أضعف منه ، ابن معتوقة ، وأولاد المرسى ، والعمدة ، والخفر ، وأنه سوف يعيش ، يزرع ويقلع وينجب أولاداً ..

وصل إلى الشاطئ ، لم يكن هناك قارب ، لابد أن مغاورى قد انتظره

طويلاً ثم انصرف ، كانت الجزيرة بعيدة ، فوقها نار موقدة ، ووردة فى انتظاره ، سيذهب إليها مثل أول مرة ، عبر النهر وفى مواجهة المياه الباردة ، على الأقل هذه المرة هناك ضمان بالدفء والمؤانسة ولحظات الحب ، دون خلع الجلباب ولف حصيلة مشتريات اليوم الضئيلة وألقى بنفسه فى الماء .

جذب الماء بذراعه تشده رائحتان ، رائحة الطين ، ورائحة جسدها ، طين خصب وجسد دافئ ، ونجوم هبطت إلى النهر وغاصت حتى القاع ، نار موقدة يتصاعد منها دخان مختلط برائحة الشاى ، كل شئ ماض قد مضى ، تساقط مثل أعوادا الدريس ، لم تبق إلا هذه الحياة الجديدة التى انبثقت ذات لحظة نادرة من جوف النهر بعيداً عن ظلمة الزرائب .

ضرب الماء بذراعه ، من الغريب أن يكون النهر دافئاً فى هذا الوقت وأن تغمره الموجات فى نعومة ، تقوده بدلاً من أن تقاومه ، ألفت ضرباته وأوهنت من قوتها حتى لا توهن ذراعه الوحيدة ، وهناك فى انتظاره سرير من عشب وجسد يتمطى وعرق ساخن يصنع ذكرى متوحدة ، ويوماً ما سوف تنبت الجزيرة أعوادا من «الريحان» فيجدله فى شعرها ويصنع لها عقداً من سنابل القمح ، ضرب الماء بذراعه حتى ارتمى أخيراً فى حضن الجزيرة غير متعب وسعى إلى نارها الموقدة وجسدها النعسان.

كانت جالسة تنظر نحوه فى هدوء وهو يتقدم مبللاً بقطر الماء ، خيل إليه أنه من خلال اللهب يلمح طيف ابتسامة غامضة وغريبة على وجهها ، استدار الرجل الآخر الذى كان يجلس فى مقابلها فى هدوء ، نظر إليه وعلى وجهه ذات الابتسامة ، بينهما أكواب الشاى وأعقاب السجائر ،

توقف آدم مبللاً ، مرتعداً ، وقال ابن معتوقة مبتسماً :

لقد اتفقنا على كل شئ ..

صاح آدم فى صوت مختنق :

– غادر جزيرتى ..

قال ابن معتوقة فى هدوء :

– أصبحت جزيرتنا الآن .. السيدة معى .. والأرض غير صالحة للزراعة ، فلم المكابرة ..

انقض آدم عليه ، أمسكه من عنقه ، رفعه بسهولة من على الأرض وأوشك أن يقذف به فى ماء النهر ، تحول صوت ابن معتوقة إلى حشرجات والتفت ياقة البالطو الأصفر على عنقه .. وأحس آدم بضربة تهوى على مؤخرة رأسه .. تزلزل جسده كله .. تراخت أصابعه وأفلت منها ابن معتوقة ، استدار آدم ببطء إليها ، رأى وجهها المحمر .. يضج بالشهوة .. فى لحظة ارتفع فيها إلى ذروة كل شئ .. رآها وهى تحتويه بذراعيها وساقيها فأوشك أن يصرخ من فرط النشوة وحرقة الجوع ولكنها كانت ترفع البندقية إلى أعلى وتستعد كى تهوى بها من جديد .

أغسطس ١٩٨٩